سلسلة الدراسات التاريخية (47)

ملامح من المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي

(1298-1373هـ / 1881-1956م)

د. عبد الله الزبير يوسف

الطبعة الأولى
2025م

سلسلة الدراسات التاريخية (47)

ملامح من
المُقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي
(1298-1373هـ / 1881–1956م)

د. عبد الله الزبير يوسف

الطبعة الأولى
2025م

ملامح من
المُقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي
(1298-1373هـ / 1881–1956م)

د. عبد الله الزبير يوسف

الإيداع القانوني
...../2025م

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 121566207 - 00249122094856
البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر:
الطبعة الأولى - 2025م
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر والمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

(سورة هود: الآية 61)

إهــداء

إلي العاملين بجامعة بخت الرضا
ذلكم العشق الأبدي الذي لا ينضب (معقل الريادة والتميز) .

المؤلف

شكر وتقدير

خالص شكري وتقديري للعاملين بمكتبة التربية جامعة بخت الرضا

إلى الزملاء بقسم التاريخ كلية الآداب جامعة بخت الرضا

إلـي أخـي البروفسـور حـاتم الصديـق محمـد أحمـد أسـتاذ التاريـخ الحديـث بجامعـة الزعيـم الأزهـري ومديـر مركـز بحـوث ودراسـات دول حـوض البحـر الأحمـر

وإلى كل من أسهم معنا بفكره ورأيه وجهده في إنجاز هذا الكتاب.

لهم مني جزيل الشكر والامتنان.

المؤلف

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم (1)	11
تقديم (2)	13
المقدمة	17
الفصل الأول: الاحتلال الفرنسي لتونس والمُقاومة التونسية حتى قيام الحرب العالمية الأولى.	21
الفصل الثاني: المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية (1919–1939م)	35
الفصل الثالث: المُقاومة التونسية خلال الحرب العالمية الثانية (1939–1945م)	55
الفصل الرابع: المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية (1946–1953م)	63
الفصل الخامس: استقلال تونس	81
الخاتمة	89
قائمة المصادر والمراجع	91

تقديم

1

لقد شرفني الأخ الدكتور عبدالله الزبير يوسف الأستاذ المشارك بقسم التاريخ بجامعة بخت الرضا بالتقديم لكتابه القيم الموسوم بعنوان: ملامح من المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي (1298–1373 هـ/1881–1956م)، وأنا سعيد بهذا التشرف فقد مثّلت تجربة المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي واحدة من أنصع صفحات النضال الوطني في العالم العربي والإسلامي خلال العصر الحديث. فمنذ لحظة فرض الحماية الفرنسية على تونس عام 1881م، وحتى لحظة الاستقلال الكامل في عام 1956م، لم تهدأ الحركة الوطنية التونسية، ولم يخمد صوت المقاومة، سواء في شكلها الشعبي العفوي أو في نسقها السياسي المنظم.

إن هذا الكتاب يسعى إلى تقديم قراءة تحليلية شاملة ومتسلسلة زمنياً لمسار المقاومة التونسية، وذلك عبر خمسة فصول رئيسة وخاتمة، تغطي ما يزيد عن سبعين عاماً من النضال ضد الاستعمار. وقد راعى المؤلف التوازن بين التوثيق التاريخي والتحليل الموضوعي، مع الاستناد إلى المصادر المحلية والأجنبية، والرجوع إلى شهادات المؤرخين والمجاهدين المعاصرين لتلك الحقبة.

في الفصل الأول، يتناول الكتاب بداية الاحتلال الفرنسي لتونس، مع تسليط الضوء على ردود الفعل الشعبية والرسميات المبكرة، وأهم الثورات الريفية والمحاولات الأولية لصد الاستعمار حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

أما الفصل الثاني، فيرصد تطورات المقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية (1919–1939م)، وهي الفترة

التي شهدت بروز الحركة الوطنية الحديثة، وتأسيس الأحزاب السياسية، وصعود الزعامات التي ستلعب أدواراً حاسمة لاحقاً.

ويُعنى الفصل الثالث بتتبع مسار المقاومة التونسية خلال الحرب العالمية الثانية (1939–1945م)، حيث تعقّدت الأوضاع الدولية، ووجد التونسيون أنفسهم بين مطرقة الاحتلال الفرنسي وسندان القوى المتصارعة على الأرض التونسية، في وقت بدأت فيه تطلعات الاستقلال تزداد وضوحاً.

في الفصل الرابع، يُركّز الكتاب على الفترة من نهاية الحرب حتى عام 1953م، وهي سنوات شهدت تصعيداً كبيراً في النضال الوطني، وازدياد الضغوط الداخلية والدولية على فرنسا، وتبلور البرنامج السياسي للاستقلال، مع نشاط واضح للنخب والمثقفين والعمال والطلبة.

وأخيراً، يتناول الفصل الخامس المرحلة الفاصلة، أي مرحلة الاستقلال، مع بيان حيثيات المفاوضات والتنازلات الفرنسية، وتأسيس الجمهورية التونسية، وانتهاء عهد الحماية.

تأتي الخاتمة لتلخّص أبرز ما ورد في الفصول، وتبرز النتائج العامة للمقاومة التونسية، وما خلفته من إرث وطني وسياسي، لا على تونس وحدها، بل على عموم الحركات التحررية في العالم العربي.

إن هذا الكتاب لا يهدف إلى التأريخ فقط، بل يسعى لإبراز روح الشعب التونسي المقاومة، وتخليد تضحياته، وتقديم درس للأجيال المقبلة عن قيمة الحرية وكرامة الأوطان.

حاتم الصديق محمد أحمد

السبت 19 يوليو 2025م

تقديم

2

د. عبد الله الزبير يوسف هو أستاذ جامعي. مؤلف شاب ومجتهد وله الحضور في العديد من المحافل والفعاليات العلمية.

بين أيدينا كتابه الموسوم ب: ملامح من المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي 1298- 1373هـ / 1881- 1956م

الكتاب إحدى منشورات مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر بالشراكة مع دار أريثيريا للنشر والتوزيع والمركز له بالتُميز والتطور وغزارة النشر العلمي الهادف.

الهدف الرئيسي للكتاب هو تتبع مسار المقاومة التونسية للمُستعِمر الفرنسي منذ بداياتها، والتضحيات التي بزلتها من أجل الحصول على الحرية. الأمر الذي يمكن أن يساهم في تقديم معلومات قيَمة لطلاب المعرفة في هذا المجال والمسار.

انتهج المؤلف في مؤلفه النهج العلمي المتعارف عليه في كتابة البحوث التاريخية وفقاً لمتطلبات منهج البحث التاريخي. احتوى الكتاب على خمسة فصول وفيما يلي عناوينها وإيجاز لمحتوياتها ومضامينها.

الفصل الأول: المُقاومة التونسية الأولى حتى قيام الحرب العالمية الأولى:

استطاع المُؤلف من خلال هذا الفصل أن يؤرخ لبدايات حركة المُقاومة التونسية وتطورها والأدوات التي استخدمتها، وهي تتراوح ما بين بس

الوعي والكفاح المُسلح علماً بأن المُقاومة خلال هذه المرحلة اكتسبت طابع الهوية العربية الإسلامية.

الفصل الثاني: المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الأولى حتى بداية الحرب العالمية الثانية: من خلال هذا الفصل تتبع المُؤلف التطورات التي طرأت على شكل المُقاومة الوطنية التونسية وانعكاسات الحرب العالمية الأولى وما حملته من وعود للشعوب المُستعمرَة الأمر الذي أدى إلى تراجع الكفاح المسلح قليلاً لصالح ظهور الأحزاب السياسية ، وانتشار الوعي من خلال الصحافة مع بروز شخصيات وطنية لامعة لعبت أدوار رائدة في مُقاومة المستعمر بوسائل غلب عليها النضال السياسي السلمي ومحاولة تحقيق مكاسب المُستعمر الذي استمر في ممارسة العُنف من أجل المقاومة الوطنية .

الفصل الثالث: المُقاومة التونسية خلال الحرب العالمية الثانية: من خلاله سلط المؤلف الضوء على جهود الباي محمد المُنصف في خدمة المُقاومة الوطنية في وقتٍ اشتدت فيه قبضة الاحتلال على قيادات المُقاومة ومارس في حقهم السجن والنفس. إلى جانب منع جميع أشكال النشاط السياسي المعادي للمُستعمر الفرنسي الذي وجد نفسه مُجبراً على تقديم بعض التنازلات لصالح الحركة الوطنية التونسية.

الفصل الرابع: المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية: تتبع المؤلف من خلال هذا الفصل نمو وتطور الحركة الوطنية مع ظهور النقابات التي شكلت الإتحاد التونسي للشغل الذي مثل نقطة نوعية في تطور المُقاومة إلي جانب بروز الجبهة الوطنية المُتحدة وهي عبارة عن وعاء احتوى جميع قيادات العمل الوطني لتحقيق الاستقلال بعد طرد المُستعمِر. أيضاً أشار المُؤلف وأشاد بنضوج الحركة الوطنية التونسية خلال هذه المرحلة عندما

اختارت سبيل النضال السياسي لتحقيق مكاسب مُتدرجة (خُذ وطالب) على الرُقم من أن المُستعمر الفرنسي بالغ في التنكيل بالمُقاومة وقياداتها، إلا أن صمود المُقاومة والشعب التونسي استمر من أجل كسر شوكة الاحتلال وتحقيق المصير.

الفصل الخامس: استقلال تونس ويشكل هذا الفصل أخر تطورات المُقاومة الوطنية التونسية وهي الوحدة من أجل التحرير. أيضاً لفت المؤلف الانتباه إلى تميُز الحركة الوطنية التونسية عن مُثيلاتها حيث جمعت بين النضال المُسلح والمرونة السياسية ومن خلال هذه المُزاوجة استطاعت أن تصل إلى مُبتغاها في نهاية المطاف وهو تحقيق الاستقلال في العام 1956م.

نقاط القوة:

انتهج المؤلف أسلوب واضح ولغة بسيطة ومباشرة بعيدة عن أي تعقيدات.

استطاع المُؤلف أن يطرح أفكاره واضحة ومرتبة مع شرحها بلغة سليمة ورصينة.

ناقش المُؤلف معلوماته بشكل منظم متسلسل ومترابط، كما أن عناوين الكتاب كانت مناسبة ومنسجمة بصورة تُمكن القارئ من فهم مضامين الكتاب بطريقة سهلة وسلسة.

هنالك بعض الجوانب تحتاج إلى تعديل في الطبعات اللاحقة أهمها:

فصول الكتاب غير متكافئة من ناحية حجم المعلومات وعدد الصفحات،

الكتاب يحتاج إلى المزيد من البحث والإضافة لا سيما الفصلين الثالث والخامس وربما التعمق أكثر في تحليل المعلومات.

ربما تحتاج الهوامش إلى إضافة تراجم للشخصيات المحورية التي وردت في متن الكتاب.

التقويم العام للكتاب:

اتبع المُؤلف طريقة التوثيق بالهوامش كل فصل على حدي بالأرقام المُتسلسلة بشكل صحيح ومنهجي.

هنالك تطابق تام بين أرقام الإشارة الموجودة في هوامش كل فصل مع الأرقام الموجودة في متن الكتاب.

هنالك تطابق بين عناوين الفصول ومضمونها فضلاً عن التسلسل التاريخي المُنضبط والمنطقي للأحداث.

عكست المُقدمة محتويات الكتاب العامة كما أن الخاتمة مناسبة وتتناسب مع ما تم عرضه في الكتاب.

إجمالاً: الكتاب مُميز احتوى على معلومات غزيرة عن المقاومة الوطنية التونسية والتي نجح المؤلف في تقديمها بشكل واضح علمي ومنهجي.

أخيراً لا شك أن الكتاب يعتبر إضافة للمكتبة التاريخية وقابل للتطور والإضافة وهو جدير بالقراءة والإطلاع .

د. أحمد محمد أحمد مُركز
أستاذ مشارك/كلية الآداب/قسم التاريخ
جامعة البحر الأحمر
السبت19يوليو2025م

المُقدمة

شهد البحر المتوسط والدول المطلة عليه ذلك الصراع الاستعماري الأوربي الذي لم يشهده تاريخ المنطقة العربية والإفريقية من قبل ولم يحدث أن استمرت موجة استعمارية مثل ما حدث في القارة الإفريقية ولم يسبق أن استنزفت موارد قارة بشرية وطبيعية مثلما كان في القارة الإفريقية ، لذلك استغلت فرنسا الظروف الداخلية لتونس التي تدهورت في أواخر عهد البايات العثمانيين الذين عجزوا عن سداد المديونية المالية للدول صاحبة القروض وإن كان هدف فرنسا هو التحكم على المناطق الإستراتيجية ولا شك أن موقع تونس الممتاز على البحر المتوسط كان هدفاً من قبل فرنسا التي أخضعتها لسيطرتها **عام** 1881م .

وفي هذه الصفحات تناول موضوع حديثنا المُقاومة الوطنية لتونس وذلك بغرض الوقوف على تضحيات الشعب التونسي الذي رفض الحماية الفرنسية بكل أنواعها وقد تم تقسيم محتوى الكتيب إلى خمسة فصول **الأول** منها تناول الاحتلال الفرنسي لتونس والمُقاومة التونسية الأولى **والفصل الثاني** تحدث عن المقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الأولى وحتى قيام الحرب العالمية الثانية (1919- 1939م) **الفصل الثالث** أفرد الحديث عن المُقاومة التونسية خلال الحرب العالمية الثانية (1939- 1945م) **الفصل الرابع** أورد الحديث عن المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية (1946- 1953م) **والفصل الخامس** والأخير خُصص للاستقلال .

الفصل الأول

الاحتلال الفرنسي لتونس والمُقاومة التونسية الأولى حتى قيام الحرب العالمية الأولى

الفصل الأول

الاحتلال الفرنسي لتونس والمُقاومة التونسية الأولى حتى قيام الحرب العالمية الأولى

الاحتلال الفرنسي لتونس:

استطاع العثمانيون طرد الأسبان الذين دخلوا تونس اثر استنجاد الأمير الحسن الحفصى بهم ، فدخل القائد (سنان باشا) تونس عام (605م) واستولى على حصونها وانتهى بذلك عهد الحفصيون الذين حكموا تونس ما يقارب (350عاماً) فقامت الدولة العثمانية بعد ذلك باستخدام لقب (الداي) في تونس ليحكم باسمها وقد حكم الدايات خلال الفترة (1539-1579م) مستأثرين بالحكم دون الوالي العثماني ، إلا أنَ سلطتهم لم تستمر نسبةَ لنشوب النزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم ظهرت سلطة جديدة في تونس وهى حكم ما يسمى (بالبايات) الذين حكموا في شكل أسرتين: الأسرة المرادية (1737- 1705م) والأسر الحُسينية (1705- 1957م) وعرفت تونس في عهد البايات بحالة من الرخاء والعمران إلا أن حكمهم أيضاً كان لا يخلوا من الصراعات على الملك(1)

حكم البايات حكماً مستقلاً عن الدولة العثمانية ولكنهم في نفس الوقت كانوا يعُدون أنفسهم تابعين لها من الناحية الدينية على أساس أنَ العالم الإسلامي وطن واحد(2) **أما قصة التدخل الفرنسي فيها** فإن الظروف الخارجية خلاصتها أن الموقع الاستراتيجي الذي تحتله تونس بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط يجعل السيطرة على تونس هدفاً مهماً من أهداف

فرنسا، إذ أنه من الواضح أن السيطرة على تونس يعني السيطرة على المنطقة الوسطى لهذا البحر، هذا وأن تونس قربيه من الساحل الايطالي ومن جزيرة صقلية التي كان لها مصالح ورعايا كثيرون فيها ، لذلك كانت فرنسا تخشي أن تسبقها ايطاليا إلى احتلال تونس، وتعود تفاصيل الاحتلال إلى أنه بعد أن احتلت فرنسا الجزائر شرعت في غزو تونس فعرضت على الباي عام 1879م مشروعاً يقضي بقبول الحماية الفرنسية إلا أنه رفض ذلك وفي عام 1881م نجد أنَ (جول فيرى) رئيس وزراء حكومة فرنسا قد بيت النية على غزو تونس فتزرع ببعض الحوادث على الحدود وكان قد مهدت فرنسا لحملتها بإثارة مشكلة الحدود بين الجزائر وتونس المتمثلة في (قبائل الدوائر والزمالة وقبيلة بنو خمير) وهى قبائل رعوية عبرت الحدود الفاصلة بين تونس والجزائر فعملت على تضخيمها ، حيث أظهرت أن أمر هذه القبائل قد أفلت من يدَ حكومة الباي ، فتبنت فرنسا إرسال حملة لتأديب هذه القبائل التي لا يملك الباي عليها أي سلطات تحت قيادة الجنرال (فور جيمول) في 16أبريل 1881م والتي تكونت من 57 ألف جندي وفي يوم 29أبريل من نفس العام عبر الجنود الفرنسيون الحدود واحتلوا مدينتي (الكاف) (وطبرقة) بدون مقاومة ، كما أنزلت فرنسا بعض قواتها التي أبحرت من ميناء طولون في بنزرت وبعد احتلالهم لها تقدموا صوب العاصمة وعسكروا على مقربة من قصر(باردو) وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر هذا اليوم قدم القنصل العام الفرنسي (روستان) إلى

الباي نسخة من المعاهدة المطلوب التوقيع عليها وأعطى الباي مهله حتى الساعة التاسعة لقبول المعاهدة أو رفضها، فأضطر الباي (محمد الصادق) للتوقيع عليها يوم 12مايو1881م) وبذلك أضحت تونس تحت مظلة الاحتلال الفرنسي (3)

خريطة توضح موقع تونس

الإدارة الفرنسية في تونس:

كانت كل المستعمرات الفرنسية في إفريقيا تخضع (لحاكم عام فرنسي) يتلقى أوامره من وزير المستعمرات في باريس ويعاون هذا الوزير المجلس الأعلى للمستعمرات بالإضافة إلى مجالس استشارية وأخرى متخصصة في بعض الشؤون مثل(التعليم والشؤون الصحية) وكان البرلمان الفرنسي هو الذي يُصدر جميع التشريعات الخاصة بالمستعمرات وعلى حكام المستعمرات أن يصدروا الأوامر المحلية لتنفيذ هذه التشريعات ، أما تونس فقد أخضعتها فرنسا (لنظام الحماية) وأصبحت فيها حكومتان- حكومة وطنية يرأسها الباي أو السلطان وأخرى فرنسيه يترأسها (الحاكم العام الفرنسي) ويرأس الحاكم العام مجموعة من الموظفين يُعتبرون مستشارين للوزراء الوطنيين ويكون هؤلاء هيئة في الواقع بمثابة (وزارة فرنسية) (4)

أخذوا الفرنسيون يديرون البلاد إدارة مباشرة فعينوا حاكماً عاماً كان بمثابة مسئول عام للبلاد وسكرتير للحكومة التونسية وكان يشرف على الإدارة العامة باسم رئيس الوزراء وقد أحدثت الإدارة الفرنسية تغييرات في الوزارات التونسية ولم يبقى بعد الاحتلال والحماية من الوزارات القديمة غير منصب الوزير الأكبر ووزير القلم والاستشارة وبعد عام 1881م قام المقيم العام بأعمال وزير الحربية ، كما قام قائد القوات الفرنسية أيضاً بتلك المهام ثم أصبح لمجلس الوزراء بعد عام 1882م أمين عام فرنسي يعينه الباي ويوافق عليه الحاكم العام . وعقب توقيع معاهدة (المرسى الكبيرعام1883م) أسرعت فرنسا بإلغاء المجلس التشريعي وعهدت بإصدار التشريعات إلى الباي مع ضرورة توقيع المقيم الفرنسي على المراسيم التي يصدرها قبل تنفيذها (5)

المقاومة التونسية الأولى للاحتلال حتى قيام الحرب العالمية الأولى:

اتخذت حركة مقاومة الاستعمار الفرنسي في المغرب صوراً أكثر عنفاً وشده بينما بدأت نضالاتها باتخاذ أسلوب الكفاح المسلح (القوه العسكرية والجهاد الحربي) طريقاً للنضال ولكنها لجأت في أحيانٍ أخرى إلى المظاهرات والاضطرابات والاحتجاجات ولم تُنظم هذه المقاومة في تنظيم ذي محتوي سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي إلا بعد تجارب مريرة خاضها النضال الوطني ضد سلطات الاستعمار ثم توالت الحركات الوطنية في تونس منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حتى يوم استقلالها، إلا أن هذه الحركات لم تتسم بالزعامة القوية ولا بالتنظيم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ومما ساعد عرب تونس على ذلك طبيعة بلادهم التي

تشتمل على سلاسل من الجبال وصحاري واسعة فلجأوا للاعتصام بها أثناء مقاومة المستعمرين الفرنسيين وكان قد شجع التونسيين على ثورة عاملان (6):

- قيام ثورة في الجزائر وهي ثورة (بو عمامة) في جنوب وهران عام1881م
- إحساس التونسيين بأن القوات العثمانية المرابطة في طرابلس الغرب ستؤيدهم إذا فشلوا في حركتهم.

بدأت حركة المقاومة التونسية منذ اليوم الذي وضع فيه جندي فرنسي قدمه على أرض تونس، بعد أن كشف المثقفون التونسيون زيف ادعاءات فرنسا بأنها قدمت إلى تونس لا لغزوها بل لمساعدة الحكومة الوطنية على بسط الأمن والنظام في البلاد لذلك هبَت المقاومة الوطنية في مواجهة المستعمرين الفرنسيين وكانت الجالية الفرنسية في تونس بما تحمل من حقد وتعصب ضد الوطنيين التونسيين تحث السلطات الفرنسية على استخدام الشدة القصوى ضد الوطنيون التونسيون بحجة أنهم لا يفهمون إلا لغة القوه الرصاص (7)

ثورة القيروان 1881م:

أخذت روح التمرد والثورة والدعوة للكفاح المسلح والمقاومة تنتشر في البلاد وتحركت القبائل للدفاع عن وطنها ودينها. حيث تشجع التونسيون على القيام بالثورة لما رأوه من تخاذل الباي أمام الغزو الفرنسي، في الوقت الذي حدثت فيه ثورة جزائرية في وهران في صيف 1881م تزعمها رجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية الذين اعتبروا الثورة ضد الفرنسيين جهاداً إسلامياً(8) ثم اضطرت فرنسا لإرسال الجنرال (سوسيه) من الجزائر

لقمع هذه الثورة التي أصبحت تهدد الوجود الفرنسي في تونس، فزحف على القيروان ودخلها في منتصف أكتوبر 1881م وقضى بذلك على الثورة .

مقاومة أهالي الجنوب 1882م:

بدأت الثورة في الجنوب التونسي ضد السيطرة الفرنسية على تونس عام 1882م، واستمرت طوال فترة الصيف وذلك بعد أن أعلن الأهالي العصيان وهاجموا بأسلحتهم البدائية قوات الباي والجيش الفرنسي ولأجل إخماد هذه المُقاومة أعدت السلطات الفرنسية حمله عسكرية مكونه (45) ألف جندي بكامل أسلحتهم ومعداتهم (9)

مقاومة مسجد الزيتونة 1883م:

كان جامع الزيتونة بعلمائه وطلابه ملهما للنضال ومصدر إزعاج للسلطات الاستعمارية الفرنسية، وأول حركة كانت قد انبعثت منه هي حركة الشيخ (محمد السنوسي) التي تعتبر أول حركة مقاومة وطنية في تونس، بعد فرض الحماية الفرنسية عليها وقد بعث الشيخ محمد السنوسي وفود شعبية لمقابلة الباي ومطالبته بوقف الإجراءات التعسفية التي يمارسها الفرنسيون وعلى اثر ذلك نفته السلطات إلى خارج البلاد وبعد ذلك قاد حركة المقاومة الشيخ (المكي بن عزوز) الذي كان ضمن أهدافه فضح الشيوخ المتزمتين الجامدين الذين عارضوا إدخال الإصلاحات في البلاد، إلا أن السلطات الفرنسية قامت بنفيه إلى المشرق العربي حيث توفي هناك – إلا أن أفكاره الثورية ظلت راسخة في نفوس تلاميذه من الشباب التونسيين وكان من بينهم(الشيخ عبد العزيز الثعالبي) الذي أنشأ مع بعض العناصر الوطنية جريدة باللغة الفرنسية أسماها (المستقبل التونسي) وجريدة باللغة العربية سميت (بحبيب الأمة وسبيل الرشاد) (10)

مقاومة جماعة الحاضرة 1888م:

في 3/ أغسطس من عام1888م أسس مجموعه من الشباب الوطني التونسي جريدة باللغة العربية سميت بجريدة (الحاضرة) التي تولى إدارتها (علي بوشوشة) وهو من المبعوثون التونسيون سبق أن تخرجوا من معهد الصادق الديني ثم أوفدتهم الحكومة لاستكمال دارستهم بالخارج خاصة في فرنسا وعند عودتهم كانوا يحملون الكثير من الأفكار التحررية وقد دعم علي بوشوشة (البشير صفر) الذي أصبح فيما بعد زعيم الحركة الإصلاحية وأبو النهضة الوطنية ثم أصبح مقر جريدة الحاضرة هو النادي الذي يجتمع فيه أركان الحركة الإصلاحية وأركان العروة الوثقي وهم (الأمير خير الدين التونسي ، البشير صفر ، الشيخ السنوسي، والشيخ سالم أبو حاجب) وبدأت هذه المجموعة التي اتخذت من جريدة الحاضرة صوتاً لها شن الحملات على السلطات الاستعمارية والتنديد بمحاولة إدماج الشعب العربي في تونس وقد كانت هذه الحركة تسعي إلى تقوية الصلة بين تونس وحركة الجامعة الإسلامية، كما طالبت بتنفيذ الدستور التونسي، وبذلك أصبحت جريدة الحاضرة تمثل المجموعة ولها متخذه شكل الحزب السياسي مما أزعج السلطات الاستعمارية(11)

مقاومة سبيل الرشاد 1901م:

في عام 1901م أصدر عبد العزيز الثعالبي جريدة سبيل الرشاد وكان عبد العزيز الثعالبي من طلبة جامع الزيتونة ومعهد الخلدونية وكان من الملازمين له الشيخ أبو حاجب والأستاذ البشير صفر ثم عطلها وسافر إلى الأستانة ومصر ويقول عنه الأستاذ البشير صفر عاد منها غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم يتكلم بأفكار (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدوا) ومعجباً

بالكواكبي الذي كان يدعو إلى محاربة الاستبداد والمطالبة بالحرية (12)

ثورة القصرين 1907م:

هي حركة مسلحة قامت بجنوب غرب تونس كانت بقياد (علي بن عثمان) أحد شيوخ القبائل وزعيم منطقة القصرين، والتي جاءت رداً من طرف الجماهير الشعبية بالمنطقة على اغتصاب المستوطنين الفرنسيين للأراضي الزراعية وقد أخمدت هذه الحركة بعنف بعد تدخل القوات العسكرية بشكل مكثف بعد اعتقالها لزعيم الثورة وإعدامه رمياً بالرصاص (13)

حركة حزب تونس الفتاة عام 1907م:

من خلال المعارك الضاربة على هذا الصعيد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بدأ الوعي لدي الشباب التونسيين يتجه إلى العمل السياسي التنظيمي وأخذت هذه الفكرة تتبلور في أذهان المثقفين التونسيين ففي عام 1907م تأسست أول حركة سياسية منظمه لمقاومة الاستعمار في تونس باسم (تونس الفتاة) والتي كانت متأثرة بحركة (تركيا الفتاة) وكان هذا الحزب يضم المثقفين الذين تزعمهم (علي باشا) والشيخ عبد العزيز الثعالبي الذين حاولوا النهوض بتونس نهضة اجتماعية وثقافية وتكنولوجية مستمده من الحضارة الأوربية الغربية التي أبدوا إعجابهم بها مع التأكيد على تمسكهم واعتزازهم بالعروبة والإسلام ويرجع السبب المباشر في قيام حزب تونس الفتاة إلى سياسة السلطات الفرنسية في تجنيس اليهود وحرصهم على التأكيد على مفهوم (الأمة التونسية) غير أنهم في البداية لم يكونوا يناهضون نظام الحماية ولكنهم كانوا ينددون بتعدياته ويطالبون السلطات الفرنسية بإصلاحات حازمة .

كانت هذه الحركة تتمتع بتأييد شعبي قوي لذلك ساهمت في دفع حركة النضال إلى الأمام خلال الفترة بين عامي(1907-1912م) وكان أول عمل قامت به هذه الحركة هو إنشاء جريدة بالفرنسية سميت (بجريدة التونسي) التي أعلنت برنامجها السياسي والاجتماعي والاقتصادي وفي عام 1909م أصدر علي باشا نسخه بالعربية من جريدة تونسية تولى تحريرها الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وعلى العموم كانت هذه الحركة تدعو لإثارة الرأي العام ضد الفرنسيين في تونس، كأول ضربة توجه للاستعمار الفرنسي من طرف التونسيين الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية وكان الفرنسيون يوعدوهم لكي يكونوا أداة طيعة في أيديهم كما كانت تؤيد فكرة الجامعة الإسلامية التي سعت لتوحيد حركة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي وإلى الإصلاحات الدستورية الواسعة وإلى الاستقلال(14)

ظلت جماعة تونس الفتاه تمثل الحركة الوطنية في البلاد وتتجاوب مع جمعية تركيا الفتاه والدولة العثمانية وحينما نشبت الحرب الايطالية-الليبية عام1911م بعد الغزو الايطالي إلى ليبيا كانت تونس الفتاه تمثل أداة مهمة في تحريض الرأي العام العربي والإسلامي في كل أقطار المغرب للوقوف في وجه العدوان الاستعماري على هذا الإقليم العربي الإسلامي، بل قامت تونس بدور مهم في إمداد المحاربين المجاهدين الليبيين في ميدان المعركة بما يلزمهم من أسلحه وذخائر وعملت أيضاً على إثارة حركة تحررية تمتد من طرابلس إلى تونس والجزائر وأخيراً خمد نضال علي باشا عام 1912م عندما صدر حكم نفيه كما صدرت أحكام بنفي عدد من زعماء الحزب وبذلك تفرق شمل حزب تونس الفتاه وتوقفت جريدة التونسي عن الصدور من نفس العام(15).

هوامش الفصل الأول

(1) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج1،ط1993م، دار المريخ للنشر الرياض، ص93.

(2) مُفيد الزيدي: موسوعة تاريخ العرب الحديث والمعاصر، د.ت، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ص227.

(3) شوقي عطا الله الجمل: المغرب في العصر الحديث: ط1977م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ص307.

(4) شوقي الجمل: كشف إفريقيا واستعمارها، ط1971م، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ص531.

(5) حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ج1، ط2004م، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، القاهرة، ص247.

(6) شوقي أبو خليل الإسلام وحركات التحرر العربية، ط1985م ، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق ، ص95.

(7) محمد كامل: الدول العربية الكبرى، د. ط ، دار المعارف/مصر ، ص515.

(8) رأفت الشيخ: تاريخ العرب المعاصر، ط1966م ، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ص142.

(9) أميمه عبد العظيم سليمان: تطور الحركة الوطنية التونسية (1919-1956م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب/قسم التاريخ والحضارة/ جامعة بخت الرضا ، ص36.

(10) حلمي محروس إسماعيل: مرجع سابق ، ص245.

(11) علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط1984م ، لجنة الثقافة للنشر/القاهرة ، ص48.

(12) الطاهر عبدالله: الحركة الوطنية التونسية، ط3، د.ت ، دار المعارف، مصر ، ص33.

(13) حلمي محروس إسماعيل: مرجع سابق، ص426.

(14) عبد الوهاب أحمد عبدالله: تاريخ العرب الحديث، ط4، 2001م، دار الفكر للنشر/دبي، دبي، ص200.

(15) جعفر عباس حميدي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، د.ت، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، ص300.

الفصل الثاني

المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الأولى وحتى بداية الحرب العالمية الثانية (1919-1939م)

الفصل الثاني

المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الأولى وحتى بداية الحرب العالمية الثانية (1919-1939م)

حركة المُقاومة في الأساس هي واقع سياسي يدل على نضوج البيئة السياسية في كل وحدة إقليمية من أفريقيا نضوجاً يتمثل في تفكير سياسي يعبر عن وجوده وفعالية في منظمات سياسية تطالب بأهداف محددة هي التحرر من أوضاع منظمات اجتماعية فرضها الحكم الاستعماري (1)

حاول الاستعمار الفرنسي منذ أن وطأة أقدامه أرض تونس إحداث الكثير من التغيرات فلم يقف عند اغتصاب الأراضي ونهب الثروة وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك فأراد سحق الهوية القومية للشعوب وإلغاء عروبيتها وأن سياسة الاستيطان التي عملت من أجلها الإدارة الفرنسية دفعت أبناء تونس إلى التفكير بشكل جدي لمقارعة الاستعمار (2)

ثورة قبائل الجنوب التونسي:

منذ الاحتلال الاستعماري لتونس وبداية نفوذه جعل منطقة الجنوب خاضعة للحكم العسكري المباشر وكانت الإدارة تدار في منطقة الجنوب من ضباط عسكريين نظراً لأن هذه المنطقة تشكل الخطر الداهم على الاستعمار لما عرف به أبناء المنطقة من روح الحمية والتعلق بالوطن ورفض الوجود الاستعماري أيديولوجياً رفضاً مطلقاً ومنذ بدايات القرن العشرين أخذ التونسيون في تنظيم أنفسهم وقواهم لمحاربة الاستعمار الفرنسي وذلك

من خلال تكتلات وتجمعات انضووا تحتها المؤمنون بالجهاد والانتفاضة ، حيث قامت ثورات مسلحة في منطقة الجنوب وخاصة ثورة عام 1915م التي استمرت إلى عام1918م التي قامت بها قبائل بنى زيد بقياد البطل (الحاج سعيد بن عبد اللطيف) تلك القبيلة التي عرفت ببأسها الشديد ولم تستطع السلطات الفرنسية إخماد هذه الثورات تماماً إلا بعد لجوئها إلى الاستعانة بقوات كانت مرابطة في الواجهة الكبرى بأوروبا فتشتت الثوار ولكن بالرغم من ذلك لم يتخلوا عن قضية وطنهم بل أضطر القادر منهم إلى حمل السلاح والانضمام إلى ثورة الدغباجي . وفي أثناء الحرب العالمية الأولى هاجم الزيتونيين فرنسا عبر معلقات تحريضية دعت إلى رفض تقديم أي مساعدات بما فيها الضرائب لفرنسا. ولكن علي الرغم مما أظهرته الحركة الوطنية التونسية من تصدي للقوات المحتلة في عدد من الانتفاضات ، إلا أنها لم تكن في مستوي يسمح بمواجهة القوي الغازية التي كانت منظمة تنظيمياً حديثا ، ثم بعد ذلك قامت فرنسا بحل جمعية تونس الفتاه ونفت أعضائها البارزين فأضطر من بقي منهم في البلاد أن يعمل في الخفاء طوال أيام الحرب العالمية الأولى التي كانت لها أثارها السياسية على تونس بسب ما أعلنه الحلفاء عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، إذا ستأنف الوطنيون التونسيون نشاطهم الوطني في تلك الأجواء السياسية الجديدة في سبيل التخلص من الوجود الأجنبي، فحاول عبد العزيز الثعالبي أن يشرح قضية بلاده للدول الأجنبية والأحزاب الفرنسية لشرح مشكلات الحماية الفرنسية، والحصول على الاستقلال من الحكم الأجنبي(3)

إلا أن الوطنيين التونسيين في الجنوب وغيرهم لم يكن لهم أي عمل واضح ضد فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918م) بل أنهم دفعوا

ثمناً باهظاً للدفاع عن فرنسا وإجبارهم على المشاركة في الحرب لمصلحة الحلفاء حيث ساهمت البلاد التونسية في الحرب بعدد من الرجال يبلغ(50) ألف رجل . لذلك تُعتبر فترة الحرب العالمية الأولى فترة ركود للمقاومة الوطنية التونسية لأسباب اقتصادية واجتماعية وربما لاعتقاد الشباب الوطنيين أن نهاية الحرب قد تكون فرصة لاتخاذ المُقاومة الوطنية سياسة جديدة تجاه فرنسا أكثر وضوحاً.

عانت تونس خلال الحرب من أزمة اقتصادية شديدة وخاصة في الزراعة وحاولت فرنسا التخفيف منها خوفاً من عواقبها وهي منشغلة في الحرب، بعد أن أصابت الأزمة الفئات الاجتماعية الوسطي والفقيرة بسبب قلة الموارد المالية ونقص السلع الضرورية وغلاء الأسعار وفقدان فرص العمل وتجنيد الشباب للحرب لذلك كانت فترة الحرب العالمية الأولى هي مرحلة ترقب بالنسبة للمُقاومة الوطنية التونسية بانتظار ما تفرزه تلك الحرب من متغيرات دولية لها انعكاساتها على تونس التي كانت تحت نيران الاستعمار الفرنسي (4)

وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وعلى أثر إعلان مبادئ الرئيس الأمريكي (ولسون) عن حق تقرير المصير للشعوب المستضعفة المحتلة وعلى نحو ما فعلت مصر والبلاد العربية الأخرى، حاول عبد العزيز الثعالبي إحياء حزب تونس الفتاه والدعوة للقضية التونسية في الأوساط الدولية فقصد باريس عام1919م على رأس وفد تونسي لعرض قضية بلاده على مؤتمر الصلح في فرساي فقدم مذكرة يطالب فيها باستقلال تونس إلا أن المؤتمر رفض الاستماع إلى وجهة نظره كما نشر كتاباً بالفرنسية في باريس بعنوان (تونس الشهيدة) فضح فيه الثعالبي بشكل شامل دسائس الاستعمار وجرائمه في

حق الشعب التونسي وقد ذاع هذا الكتاب بين الجماهير والمثقفين في تونس والمغرب العربي، مما دفع السلطات الفرنسية إلى اعتقاله وإعادته إلى تونس حيث ألقت به في أحد سجونها، إلا أن المظاهرات والاضطرابات شملت أنحاء البلاد فاضطرت السلطات الفرنسية إلى إخلاء سبيله .

حزب الدستوري الحُر التونسي:

كانت ظروف الحرب العالمية الأولى قد ساعدت على نمو طبقة اجتماعية جديدة في المجتمع التونسي وظهور زعماء وشباب وطنيين جُدد في الساحة، وبروز اتجاهات سياسية جديدة منها الحزب الحر التونسي بزعامة عبد العزيز الثعالبي الذي قدم مطالبه إلى الباي في يونيو 1919م ووعدهم الباي بالموافقة على إنشاء الحزب ولكن الثعالبي لم يوافق على هذا الحزب وأفكاره فظلت الخلافات قائمة بين الطرفين حيث كان الثعالبي يري أن الدستور خطوة ستأتي طبيعياً بعد حصول البلاد على الاستقلال، إلا أنه أخيراً رأى أنه كزعيم سياسي وجب عليه عدم التخلي عن هؤلاء الشباب المطالبين بالدستور فقرر مساعدتهم وتوجيههم نحو الهدف الاسمي وهو الاستقلال . لذلك يُعتبر الشيخ عبد العزيز الثعالبي المرشد الأول للحزب الدستوري في تونس كما يعد رائداً للنهضة التونسية وركن من أركان الإصلاح الفكري والاقتصادي في تونس (هو من أب جزائري وأم تونسية) ثم تقدم الحزب الدستوري ببرنامج يقضي باستعادة تونس لحقوقها وسيادتها عام 1920م يتلخص في الآتي:

أ. تشكيل جمعية تشريعية مختلطة (فرنسية وتونسية) لها صلاحيات واسعة في القضايا المالية.

ب. تأليف حكومة وطنية.

ج. الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية فصلاً تماماً.

د. منح التونسيين حق إشغال الوظائف حسب كفاءاتهم ومساواتهم بالفرنسيين.

ه. المساواة في الحقوق التونسيين والفرنسيين بالرواتب.

و. تشكيل مجالس محلية منتخبه.

ز. جعل التعليم إجبارياً.

ح. منح التونسيين حق شراء أراضي الدولة.

ط. منح التونسيين حرية عقد الاجتماعات وتشكيل الأحزاب وضمان حرية الصحافة

ثم أصدر الحزب صحيفة ناطقة بلسانه معبرة عن مواقفه سميت (بالصوت التونسي) وقد حصل الحزب على تأييد الباي (محمد الناصر) الأمر الذي دفع السلطات الفرنسية إلى توجيه الضربات للباي بحجة تأييده للوطنيين وانتهي الأمر بوفاة الباي عام1922م في ظروف غامضة فارتقى الباي (محمد الحبيب) العرش وهو من الموالين للسياسة الفرنسية(5)

كان الحزب في أساسه حزباً جماهيرياً أراد به الزعماء الاتجاه للشعب من أجل تحقيق أهدافهم الوطنية والدخول في معركة طويلة مع الاستعمار بالاعتماد على الشعب والإيمان باستحالة إلغاء الحماية الفرنسية في الوقت الراهن، فجاء تأسيس الحزب الدستوري في 20 مارس1920م باسم الحزب الحر التونسي بعد أن قام عبد العزيز الثعالبي بتعديله إلى (الحزب الدستوري الحر التونسي) ليتطابق أكثر مع مطالبه ثم سافر إلى

فرنسا وأخذ يعمل في تنظيم الحزب فتمكن من الحصول على تأييد كبير لبرنامجه إلا أن فرنسا سعت لشق الحزب الدستوري وسحب البساط من تحت أقدامه، وذلك عندما أصدر المقيم العام والباي عدداً من المراسيم والأوامر حددت قواعد التمثيل المركزي عن طريق الانتخاب للمستويات المختلفة، ثم اتجهت فرنسا لمواجهه المعسكر الوطني التونسي، فمنحت الموظفين الفرنسيين علاوات إضافية وفتحت باب التجنيس أمام التونسيين للحصول على الجنسية الفرنسية وأصدرت قرارات بإبقاء الوضع في تونس على ما هو عليه وتشجيع حركة التوطين الفرنسي في تونس ورفضت منح تونس الدستور ثم أصدرت مرسوم في الثالث عشر من يوليو 1922م ينص على إنشاء أربعة أنواع من المجالس في تونس هي- المجلس الكبير- لجنتي المالية والأشغال- المجالس الإقليمية- مجلس القيادة وكانت فرنسية تونسية مشتركة ، الهدف من ذلك أن يبدأ التونسيون في دارسة محتوياته ثم يختلفوا حوله وأدت بالفعل إلى انقسام الحزب الدستوري بين مؤيد ورافض فانشق حزب جديد هو حزب الإصلاح الذي وافق على المشاركة في الانتخابات الجديدة في المجالس الأربعة مما سمح في تدعيم نفوذ فرنسا في تونس ووقف جهود وبرنامج الحزب الدستوري وبذلك أصاب الركود نشاط الحزب الدستوري لفترة امتدت لتسع سنوات (1922-1931م) غير أن حمق السياسة الفرنسية في تونس أعاد الحياة مرة أخرى إلى الحزب الدستوري(6)

خرجت الحركة الوطنية التونسية من طابعها النخبوي في عقد العشرينات لتصبح جماهيرية لها تأثيرها في الأوساط الشعبية في كل البلاد ويعود لها الفضل في انتشار الصحافة التي بلغت عام1922م ثلاثين صحيفة قامت بنشر الوعي الوطني والقومي ونشر مبادئ الحزب الدستوري، إلا أن

السلطات الفرنسية ضيقت على الصحافة ولاحقت زعماء الحركة الوطنية وأجبرت عبد العزيز الثعالبي على ترك البلاد عام 1930م وإيقاف العدد من الوطنيين ومحاكمتهم وسجنهم ثم أصدرت قوانين جائرة بحق الصحافة الوطنية والمحاكم والقضاء بعد أن قام الباي محمد الحبيب بالمصادقة على هذه الأحكام عام1926م مما سبب ركود للحركة الوطنية خلال الفترة (1922-1926م) ويمكن نقول أن فرنسا نجحت في شق وحدة الحركة الوطنية عام 1922م داخل الحزب الحر الدستوري تحديداً ودعمها لحزب الإصلاح ومنحه صلاحيات العمل بحرية دون القوى الأخرى في المجتمع التونسي وفي الوقت نفسه أدت سياسة الكبت الفرنسية إلى ظهور عناصر شبابيه توافقوا على العمل السياسي بعد أن فاق نشاطهم الحزب الدستوري وهم من الذين تثقفوا بالثقافة الغربية وممن عملوا بالصحافة فأنشئوا جريدة مستقلة تُعبر عن الصوت التونسي سموها (جريدة العمل) وظهر من بين كتابها(الحبيب بورقيبة) الذي كان شاباً يرغب في بناء وطنه على أسس سياسية واجتماعية حدثيه وعصرية، تلك الجريدة نجحت في كسب الرأي العام التونسي لأنها عالجت قضايا اجتماعية مهمة لم تتجرأ غيرها من الصحف على تناولها ثم دعت إلى دعم وتشجيع الصناعة الوطنية كما دعت إلى تطور المجتمع وتثقيفه وفتح أبواب تونس للبضائع الأجنبية وفي المجال السياسي ركزت على ضرورة الاعتراف لتونس بحريتها واستقلالها. إلا أن السياسة المتشددة للسلطات الفرنسية مع العناصر الوطنية المطالبة بالحياة الدستورية وافق الحزب الحر الدستوري على ضم الشباب المثقفين من أعضاء هيئة تحرير جريدة العمل في الهيئة التنفيذية للحزب، فساهم وصول هذه النخبة من الشباب المثقفين على النمط الغربي على جعل أسس الإصلاح والتحديث تصل إلى الحزب والتي تتمثل في فصل السلطات

الثلاثة (التشريعية، التنفيذية، القضائية) وضرورة إنشاء مجلس تشريعي والاهتمام بنشر التعليم ورغم أن السلطات الفرنسية حلت الحزب الدستوري وشددت الإجراءات ضد أعضائه إلا أن ذلك العمل ساهم في ظهور تيار سياسي وفكري جديد في الساحة التونسية(7)

الزعيم عبد العزيز الثعالبي (مؤسس الحزب الدستوري)

الحركة العمالية 1924م:

كان النظـام الاسـتعماري يحتقـر العمـال العـرب في تونـس ويعتبرهـم أجـراء درجـة رابعـة حيث كانـت تدمجهم في منظماتها النقابيـة وتبـرز منهم إمكانيـات وتخـرج السـلطة الاسـتعمارية بالربـح ثمنـاً للجهـد والكـدح الـذي يقـوم بـه العمـال العـرب التونسـيين ، لذلـك انخـرط العمـال التونسـيين في الاتحـادات النقابيـة التـي تتبـع للمركـز النقابـي العـام في باريس وكان ذلـك في عـام 1919م، ولـم يمضـي وقـت طويـل حتـى شـعر العمـال التونسـيين بمـا يلحقهـم في هـذه الاتحاديـة الفرنسـية مـن جـور فبـدو ينسـحبوا منـه تدريجيـاً وينظمـوا أنفسـهم حتـى وجـدوا مـن يقودهـم في شـخص الشـاب المناضـل الدكتـور (محمـد علـي المحامـي) الـذي كان مناضـلاً وطنيـاً عربيـاً مـن الطـراز الأول كان قـد تطـوع في حـرب طرابلس ضـد الغـزاة الطليـان ويعتبـر هـو الباعـث الأول للحركـة العماليـة في تونـس كان محمـد علـي يقـود سـيارة الهـلال الأحمـر التونسـي لنقـل المـال والمـواد الغذائيـة والأدويـة للمجاهديـن الليبييـن في كفاحهـم ضـد الطليـان وبعـد ذلـك تعـرف علـى القائـد التركـي (أنـور باشـا) الـذي رافـق محمـد علـي مـن تونـس إلـى طرابلـس، وقـد اختـار أنـور باشـا فيمـا بعـد الشـاب محمـد علـي ليكـون سـائق سـيارته في ميـدان القتـال وبعـد انسـحاب الجيـش التركـي مـن ليبيـا غـادر محمـد علـي طرابلس إلـى سـوريا ومنهـا إلـى اسـطنبول ثـم سـافر إلـى ألمانيـا للعمـل في أحـد المعامـل وفي عـام 1924م رجـع محمـد علـي إلـى تونس يحمـل درجـة الدكتـوراه في (الاقتصـاد السياسـي) فـكان مـن أولـى الدعامـات الأساسـية التـي اسـتندت عليهـا الحركـة العماليـة في تونـس مـا أن وصـل هـذا الرجـل حتـى شـرع في تأسـيس نـوع مـن التعاونيـات الاسـتهلاكية تحـت اسـم (جمعيـة التعـاون الاقتصـادي التونسـي)(8) كانـت غايـة محمـد علـي مـن هـذا العمـل هـو تكويـن مشـاريع وطنيـة تكـون في حمايـة الاقتصـاد الوطنـي مـن

خطر التجار اليهود والأجانب الذين كانوا يسيطرون على جميع النشاطات الاقتصادية في تونس ولم يتاح لمشروع التعاونيات أن يبرز للوجود لأن محمد علي انهمك في هذه الفترة بالذات في حركة الاعتصام التي بدأها العمال التونسيين في ميناء تونس 1924م ثم انتشرت حتى عمت قسماً كبيراً من العمال التونسيين وكان محمد علي هنا ينظم الصفوف وينبه العمال إلى المزالق الاستعمارية ويحث الشعب على مساعدة المعتصمين في مجتمعهم ولما انتهت حركة الاعتصام بعد أن نال العمال معظم مطالبهم نشط محمد علي في تنظيم الصفوف وتأسيس نقابات عمالية تسهر على مصالح العمال وترعاها، فكانت الأولى نقابة (عمال ميناء تونس) ثم نقابة (عمال الرصيف) ثم تكوين اتحادات عمالية أطلق عليها اسم (جامعة عموم عمالة تونس) حيث انتخب محمد علي أميناً عاماً للاتحاد وتكتل عمال تونس هذه المرة حتى أصبحوا قوة هائلة وقفت في صف النضال ضد المستعمر الباغي، فتقدم العمال التونسيين بمطالب عديدة تجاهلتها فرنسا فكان اليوم الموعد المحدد لتوجيه الضربة الأولى لها (9)

إذا أعلن العمال التونسيين الإضراب العام بعد أن اتخذوا لأنفسهم مركزاً رئيسياً في مدينة بنزرت فوقع صدام عنيف بين الفرنسيين والعمال التونسيين استشهد فيه عدد كبير من التونسيين ثم امتدت هذه الأحداث الدامية إلى جبل الخروبة وحمام الأنف وتونس العاصمة فتعطلت المواصلات والصناعات بجميع المرافق التي يسيطر عليها الفرنسيين، فكانت ذلك صدمة أذهلت المستعمر وعلمته للتاريخ بأن أولئك الذين يعتبرهم رعايا أجراء أصبحوا اليوم قوة عظيمة أخذت مكانها في الصف المتقدم لطردهم من البلاد. فما كان من السلطات الاستعمارية إلا وأن قامت بتوجيه ضرباتها لهذه الحركة في شخص قائدها محمد علي بعد أن وصفت حركته بأنها (حركة دينية)

بسبب استخدام آيات القرآن الكريم في حديثه مع العمال، لذلك أقدمت على نفيه وفي عام 1937م تألفت جماعة عمالية جديدة انتشرت في جميع أنحاء تونس وبدأت تزاول نشاطها تحت شعار (لا مكان للاستعمار والاستغلال في أرض تونس) ولكن في عام 1938م تعرضت هذه الجماعة لضربات السلطات الاستعمارية فتفتت وتشتت أعضائها ، إلا أن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي عاشتها تونس في عقد الثلاثينات ألقت بظلالها على الواقع السياسي حيث تفاقمت التناقضات بين تونس وفرنسا وتوسعت الحركة نتيجة لمرور البلاد بأزمتين اقتصاديتين(1930–1932م) تدهور خلالها الإنتاج الزراعي والرعوي وذلك بسبب الجفاف الذي وقع عام (1930–1931م) وانتشار الجراد في بعض المدن وتأثيره عل المنتجات الزراعية فماتت الكثير من الحيوانات جراء ذلك ، أما الأزمة الثانية فكانت بسبب ضيق السوق الداخلية والخارجية وانخفاض الأسعار للمنتجات التونسية بسبب استمرار الأزمة الاقتصادية العالمية (1929–1932م) وتراكم المنتجات الزراعية والصناعية وعدم وجود أسوق لها وتدهور الأسعار مما دعي التونسيين إلي الاستياء العام من الاحتفال بذكرى الحماية الفرنسية على تونس مع تكاليفه الباهظة على الميزانية التونسية، فدعا الحزب الدستوري الشعب إلى مقاطعة الاحتفالات ونددت الصحف التونسية به مما دفع السلطات الفرنسية إلى إغلاق الصحف حيث وإصدارها في عام عام1933م قوانين إجبارية تقبض على كل ما يناهض نظام الحماية والباي ووضعه تحت الإقامة الجبرية في مكان يخصصه المقيم العام ثم أعطت السلطات الإدارية تخويلاً بتعطيل الصحف الناطقة بالعربية، فانقسمت بذلك حركة المقاومة الوطنية إزاء هذه الإجراءات ، فقادة الحزب الدستوري المعتدلون أرادوا التريث والآخرون اختاروا الاعتماد على الشعب لمقاومة الاستعمار(10)

الدكتور محمد علي المحامي (مؤسس الحركة العمالية التونسية)

الحزب الدستوري الجديد:

حاول الحزب الحر الدستوري التونسي استقطاب جماعة جريدة العمل والسماح لهم بالوصول إلى الهيئة التنفيذية ولكن الخلاف سرعان م ظهر واضحاً بين عناصر الحزب التقليدية ذات التوجهات العربية الإسلامية والعناصر الشابة ذات الثقافة العربية الحديثة، وعندما دعي الشباب إلى عقد مؤتمر للحزب لتعديل منهجه وإقرار سياسة جديدة رفضت العناصر القديمة ذلك في الوقت الذي استمر الشباب فيه للتحضير للمؤتمر العام الثاني في مارس 1934م في قصر هلال، الذي تم فيه حل اللجنة التنفيذية بعد أن عدوها عاجزة عن الدفاع لمطالب الشعب وعينوا قيادة جديدة تضم الحبيب بورقيبة باسم (الديوان السياسي) إلا أن اللجنة التنفيذية رفضت

مطالبة المنشقين واتخذت قراراً بتأسيس الحزب الحر الدستوري الجديد.

لقد تدرج الحبيب بورقيبة في الحزب إلى أن أصبح الأمين العام للحزب الجديد ويعتبر هو مؤسس الحزب الدستوري الجديد ووجه الحبيب بورقيبة عام 1937م اتهامات للحزب السابق القديم بالاهتمام بالدعاية للشعب وقصور العمل على عناصر برجوازية إلا أنه كان يمثل في الواقع عناصر شبابية جديدة من الطبقات الكادحة من الشعب تسعي إلى مسايرة العصر والمرونة من أجل الوصول إلى أهداف حسب الإمكانات المتوفرة ، ثم استأنف الحزب نشاطه ضد المستعمرين ولاشك أن منهج الحزب الدستوري الجديد أوسع من القديم فقد كان للحزب تنظيم دقيق وله مركز رئيسي يوجه سياسته والحزب بصورته الجديدة كان أكثر تنظيماً وإحكاماً من سابقه إذ أصبح يلاءم الروح التي تمتاز بالعزيمة والإصرار- وذلك لأن قادة هذا الحزب كانوا يجمعون بين الثقافتين العربية والغربية الحديثة . إلا أن السلطات الفرنسية في تونس لم تقف مكتوفة الأيدي أمام انتشار نفوذ الحزب الدستوري الجديد وتهديده لمصالح المستوطنين، فناصبته العداء وذلك بعد انتقاده لسياسة المقيم الفرنسي لإصداره سلسلة من المراسيم لإضفاء صفه قانونية على عمليات القمع ووصف بورقيبة هذه المراسيم بأنها كريهة وكذلك عملت السلطات الفرنسية على معاداة هذا الحزب الجديد فقبضت عام1934م على أعضائه البارزين وأبعدتهم إلى الجنوب حيث منطقة الواحات وعندما وصلت حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا للحكم عام 1936م توفرت الأجواء وأعادت الحزب الحر الدستوري للعمل من جديد بعد أن وافق على إصلاحات الحكومة الفرنسية في تونس وفي عام 1937م عقد الحزب مؤتمره الثاني في العاصمة تونس حيث رفض سياسة المهادنة والتنازلات وطالب بمقاطعة البضائع الفرنسية واستقلال

البلاد رسمياً وعلنياً وقاد هذا الاتجاه بعد القيادات بالحزب هم (الهادي غويره وصالح بن يوسف وعلي البهلوان) إلا أن الجناح المعتدل للحزب الذي تزعمه رئيسه الجديد (محمود الماطري) عارض هذا الاتجاه لعدم تهيئة الشعب لمعركة الاستقلال ، إلا أن سياسة غالبية أعضاء الحزب أصبحت أكثر تشدداً فخرجت المظاهرات التي نظمها الحزب في الثامن من أبريل عام1937م والتي طالبت ببرلمان تونسي وحكومة وطنية(11)

بعد الإفراج عن الشيخ عبد العزيز الثعالبي عام1936م وعودته إلى تونس حاول توحيد شطري الحزب الدستوري القديم والجديد ولكن دون جدوي إذا لم يجد تجاوباً من قادة الحزبين اللذان كانت سياستهم قائمه على استمالة الفرنسيين إذ أبدوا استعدادهم على التعاون مع فرنسا على أساس منح البلاد دستوراً وإتباع أسلوب التدرج نحو الاستقلال ، إلا أن السلطات الفرنسية تنكرت بعد مده وجيزة لعهودها بتأثير المستوطنين الفرنسيين الذين عارضوا بشده هذا الاتجاه بعد أن كانت تؤيدهم في ذلك الدوائر الاستعمارية في باريس، وعند قيام حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية في عام1936م أعربت عن نيتها تغيير سياساتها تجاه تونس وبلاد المغرب العربي عندها قرر الحزب الحر الدستوري الجديد أن يرسل وفداً إلى باريس برئاسة الحبيب بورقيبة وهناك تمت صياغة مشروع إصلاحي تضمن إنشاء دائرتين منفصلتين، الأولى تمثل المستوطنين الفرنسيين والأخرى تمثل التونسيين وإنشاء مجالس بلدية منتخبه وإلغاء نظام الحكومة العسكرية المقام في الجنوب التونسي وتقديم السلف للمزارعين التونسيين غير أن المستوطنين الفرنسيين قاموا بإثارة الاضطرابات الأمر الذي أدي إلى تردد الحكومة الفرنسية في الموافقة على المشروع مما دفع الحزب الدستوري الحر إلى العمل عن طريق الخلايا والمنشورات، وبمقابل

ذلـك خففـت السـلطات الفرنسـية بعـض إجراءاتهـا التعسـفية لامتصـاص الأزمـة الشـعبية في تونـس. ومـن جانـب أخـر اضطـرت السـلطات الفرنسـية علـى إثـر اشـتداد حركـة المقاومـة إلـى تغييـر المقيـم الفرنسـي العـام في تونـس فاسـتطاع المقيـم العـام الجديـد أن يحافـظ علـى الهـدوء النسـبي لمـده قصيـرة بعـد وعـده بالإصلاحـات التـي أطلقتهـا السـلطات الفرنسـية ثـم تدرجـت مطالـب زعمـاء ورمـوز الحركـة الوطنيـة التونسـية بالاعتـراف باسـتقلال تونـس وعقـد معاهـده فرنسـية تونسـية وفي عـام1937م جـري في تونـس إضـراب عـام دفاعـاً عـن المطالـب الوطنيـة طـوال عامـي (1937-1938م) لـم تقـف الإضرابـات والتظاهـرات التـي قادتهـا الحركـة الوطنيـة للضغـط علـى السـلطات الفرنسـية حيـث اصطدمـت مـع المسـتعمر في معـارك كثيـرة سـقط فيهـا مئـات الشـهداء واعتقـل فيهـا عـدد كبيـر مـن المتظاهريـن فضـلاً عـن قـادة الحـزب الدسـتوري الجديـد الذيـن زج بهـم في السـجن العسـكري بتونـس(12)

كان التوتـر العالمـي والقمـع الشـديد الـذي مارسـته السـلطات العسـكرية قـد حـد كثيـراً مـن النشـاط الوطنـي الـذي قـاده (الباهـي الأدغـم والحبيـب ثامـر) في كنـف السـرية إشـكالاً متنوعـة بالإضافـة إلـى المنشـورات السـرية وأعمـال التخريـب ، ذلـك العمـل الـذي اسـتهدف سـور ثكنـة القصبـة يوم25/اكتوبـر1939م وكان مطلـب الدسـتوريين الجـدد يتركـز علـى أفـراج عن المعتقلين السياسـيين وخاصـة الحبيـب بورقيبـة الـذي لا تـزال تحتفـظ بـه السـلطات الفرنسـية في تونـس وفي أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة أصبحـت تونـس مثـل بقيـة دول شـمال أفريقيـا مسـرحاً عسـكرياً لعمليـات الحلفـاء خاصـة بـين عامـي (1942-1943م) حيـث شـهدت تونـس معـارك بـين ألمانيـا والحلفـاء بعـد أن خضعـت للنفـوذ الألمانـي الـذب اختارهـا مكانـاً لصـد هجمـات الحلفـاء مـن مصـر وليبيـا مـن الشـرق ومـن الجزائـر والمغـرب مـن الغـرب ، لذلـك حـاول الطرفـان المتحاربـان التقـارب

من تونس وكسبها في هذه المعركة ، ثم أمعن الاستعمار في اضطهاد الأحرار وواجهت بذلك الحركة الوطنية مقاومة من جانب المستعمرين الفرنسيين منذ قيام الحرب العالمية الثانية إلا أن ذلك لم يمنعها من مواصلة نشاط المقاومة(13)

الحبيب بورقيبة (مؤسس الحزب الدستوري الجديد)

هوامش الفصل الثاني

(1) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج1،ط1993م، دار المريخ للنشر الرياض، ص93.

(2) مُفيد الزيدي: موسوعة تاريخ العرب الحديث والمعاصر، د.ت، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ص227.

(3) شوقي عطا الله الجمل: المغرب في العصر الحديث: ط1977م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ص307.

(4) شوقي الجمل: كشف إفريقيا واستعمارها، ط1971م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص531.

(5) حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ج1، ط2004م، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية ، ص247.

(6) شوقي أبو خليل الإسلام وحركات التحرر العربية، ط1985م ، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق ، ص95.

(7) محمد كامل: الدول العربية الكبرى، د.ط ، دار المعارف،،مصر ، ص515.

(8) نفس المرجع: ص516 .

(9) رأفت الشيخ: تاريخ العرب المعاصر، ط1966م ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ص142.

(10) أميمه عبد العظيم سليمان: تطور الحركة الوطنية التونسية (1919-1956م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب/قسم التاريخ والحضارة، جامعة بخت الرضا ، ص42.

(11) حلمي محروس إسماعيل: مرجع سابق ، ص245.

(12) علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط1984م، لجنة الثقافة للنشر،القاهرة، ص48.

(13) الطاهر عبدالله: الحركة الوطنية التونسية، ط3، د.ت، دار المعارف، مصر ، ص33.

الفصل الثالث

المُقاومة التونسية خلال الحرب العالمية الثانية
(1939-1945م)

الفصل الثالث

المُقاومة التونسية خلال الحرب العالمية الثانية (1939-1945م)

جهود الباي محمد المنصف في خدمة المُقاومة الوطنية:

تولي الباي (محمد المنصف) عرش تونس في عام1942م وهو أمير ذو نزعه وطنية وكان مثقفاً بل كان أكثر ثقافة من الذين اعتلوا عرش تونس من قبل وكان معروفاً بميوله للوطنية كما كان يقتدي بالخلفاء الصالحين للدولة الإسلامية، إذا كان ينزل إلى الأسواق ليتفقد أحوال الرعية وفي نفس الوقت كان الباي محمد المنصف مثال للجرأة مع المستعمرين الفرنسيين وحلفائهم فبدأ مباشرة بمطالبة الفرنسيين بتنفيذ الإصلاحات التي طالما وعدوا بها الشعب التونسي (1)

عرض الفرنسيون على الباي محمد المنصف إنهاء الحماية الفرنسية وضم مقاطعة قسطنطينية الجزائرية إلى أراضيه ولكنه رفض ولم ينس إذلال فرنسا لوالده الباي محمد الناصر ووفاته في ظروف غامضة عام1922م بل طالب الألمان بإلغاء المرسوم الصادر عام1922م الذي يقضي بالمساواة بين أجور العمال الفرنسيين والتونسيين واحترام الحريات العامة ويبدو أن المنصف كان يرغب في وقف النفوذ الفرنسي في البلاد وأن يُجنب بلاده ويلات الحرب كما رفض أيضاً التقارب مع الفرنسيين عند سقوطهم في بداية الحرب أمام دول المحور، أما على المستوي العملي فان الباي أظهر نية القيام بدور نشط في الحياة التونسية على الأقل فيما يتعلق بالأهالي ففي عام1942م قدم مذكره للمقيم العام ليحيلها إلى حكومة (فيشى)

كانت تحتوي على عدة نقاط من برنامج الوطنيين ومطالبتهم بذات الصبغة السياسية خاصة تمثيل التونسيين في (المنظمات المنتخبة) وطبيعي أن السلطات الفرنسية بتونس لم يرق لها كثيراً هذا المنعطف الذي أخذته الأحداث ولكنها وجدت نفسها عاجزة على أن ترد الفعل في تلك الظروف من المرحلة (2)

عزل الباي محمد المنصف ونفيه:

لم تستطع السلطات الفرنسية الجديدة الصبر على السياسة الوطنية الرشيدة التي اتبعها الباي محمد المنصف والتي أكسبته محبة شعبية واسعة وذلك عندما حاولت السلطات الفرنسية التخلص من الباي محمد المنصف ورجالات الحركة الوطنية بعد أن اتهمتهم بالتآمر مع دول المحور ضد الحلفاء، لذلك قامت بريطانيا بتسليم الباي محمد المنصف إلى السلطات الفرنسية بعد أن اعتبرته أسير حرب ونكلت بالوطنيين بإصدار أمراً عسكرياً بخلع الباي محمد المنصف الذي كان مناهضاً لسياسة (جيرو) المقيم العام الفرنسي في تونس فتم تعيين (محمد الأمين) بايا على العرش خلفاً له وهو أخر من تولي حكم البلاد من العائلة الحسينية ولكن الباي رفض توقيع التنازل عن العرش فنفي إلى واحة (الأغواط) ليذوق عذاب الأسر وظل الثعالبي وأنصاره يطالبون بعودة الحاكم الشرعي حتى توفي المنصف بمنفاه في فرنسا عام1948م وبعد ذلك عملت فرنسا على فرض الأحكام العرفية وإلغاء الحريات وتشديد الخناق على المقاومة الوطنية وفرض الرقابة على الصحف وتعطيل الجرائد وعمليات نقل واعتقال السجناء الوطنين إلى نيكولا في مرسيليا وايقاف قيادات الحزبين الدستوريين وإصدار أحكام قاسية ضدهم وإيداعهم في السجون الجزائرية(3) وبذلك شهدت فترة

الحرب العالمية الثانية تجنيد التونسيين الشباب الذين وصل عددهم إلى(40) ألف شخص وبعد أن أحكمت السلطات البريطانية قبضتها على البلاد أثناء الحرب وخوفاً من حدوث أي اضطرابات تُحد من مصالح فرنسا العليا، عمدت الإدارة الفرنسية الجديدة الموالية لفرنسا على شن حملة عنيفة ضد التونسيين فقامت بإلقاء القبض على عشرة ألاف منهم وألغت بهم في السجون ثم نصَبت المحاكم العُرفية والعسكرية لإدانة من تعاون مع دول المحور، ثم قامت بأعمال انتقام أيضاً ضد القبائل وفرض غرامات جماعية ، أي انتهاج سياسة استفزازيه للشعب ولكن بالرغم من ممارسة الإرهاب والتقتيل الجماعي لهم فإن الشعب التونسي لم يستسلم بل تكونت لديه كرد فعل لسوء إدارة المُستعمر الفرنسي الكره والعداء ومن هنا بدأت بوادر التمرد والثورة على المستعمرين الدخلاء – فانتظمت بالبلاد انتفاضات مسلحة في السجون التونسية واستمرت هذه الانتفاضة ردحاً من الزمن عبر فيها الشعب بجماهيره الواسعة عن رفضه للاستعمار الأجنبي ، فتنازلت فرنساً قليلاً بإصدارها في نوفمبر عام 1944م إعلان بعنوان نحو (كتلة فرنسية-تونسية) دعت فيه إلى إقامة حكم ذاتي في الداخل على أسس ديمقراطية وتشكيل جمعية تشريعية بعد إجراء مشاورات وطنية وعلى العموم شهدت تونس خلال فترة الحرب العالمية الثانية الاعتراف بالحزب الشيوعي التونسي وبنشاطه الدعائي وظهور حركة تدعو إلى عودة محمد المنصف، كما شهدت إعادة تنظيم الحزب الدستوري الجديد وظهوره بمظهر يتسم بالحذر ـــ إلا أن السلطات الفرنسية أمام التغيرات الدولية وبعد وانتصارها على دول المحور (ألمانيا وإيطاليا) عدلت من سياستها القمعية في تونس وتحت تأثير الولايات المحتدة حليفتها التي استنكرت أكثر من مره على لسان الرئيس الأمريكي (روزفلت) هذه السياسة ووجوب تفهم

المصالح الفرنسية والمطالب التونسية لذلك قررت فرنسا وقف المطاردات لزعماء المُقاومة والحركة الوطنية وإطلاق سراح القيادات الدستورية من السجون الجزائرية ، بل سمحت بإعادة إصدار الصحف التونسية فطالب الوطنيين بإطلاق سراح السجناء ووجهوا مذكرة للحكومة الفرنسية ضمنتها المطالب التالية:

أ. تأسيس مجلس تشريعي استشاري.

ب. تمكين التونسيين من جميع الوظائف واشتراكهم في الحياة البلدية.

ج. إقرار مبدأ التعليم الإجباري للأطفال جمعياً.

د. تعليم اللغة العربية في جميع المدارس والمعاهد.

ه. تأميم الشركات الكبرى ذات المصلحة العامة(4)

وبذلك نقول أسهمت الحرب العالمية الثانية في إضعاف نفوذ فرنسا على الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بعد أن ألحقت بها الضرر المادي والمعنوي خاصة في السنوات الأولى للحرب .

حركة الفلاقة1945م:

في عام1945م كان انتصار الحلفاء في الحرب فاتحة عهد جديد في تونس، إذ تميز بتطور سياسي أكثر سرعة في اتجاه تقهقر العالم الأوربي القديم وإمبرياليته الاستعمار، فقد أعلن بكل خشوع مبادئ جديدة منها حق الشعوب في تقرير مصيرها واحترام حقوق الإنسان، لذلك انتهز الوطنيون في كل البلدان المُستعمرة هذه المبادئ للدفاع عن قضاياهم والمطالبة بالاستقلال، إلا أنه وبالرغم من ذلك أن الكفاح طال أكثر مما كان متوقعاً وصاحبته

ملابسات مختلفة، فعند انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت البلاد التونسية تضم العديد من التشكيلات السياسية من القوة التي لا يمكن تحديدها والتي كان غرضها الاستقلال الذاتي أو تحرير البلاد(5)

بعد ذلك ظهرت حركة مُقاومة في جنوب الساحل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ذات منحى آخر وطبيعة أخرى فقد ضمت عناصر شبابية متنوعة وغير خاضعة في معظم الأحيان للأحزاب السياسية وبالذات الحزب الدستوري الجديد فمنهم من التحق بالأحراش بعد استرجعت السلطات الاستعمارية نفوذها على البلاد وذلك هروباً من التبعات العدلية بتهمة التعاون مع جيوش المحور أو بتهمة العصيان العسكري، وكان هذا حال(علي الصيد) قائد المقاومة من المرازيق الذي شكل عصابة بلغ عددها ثمانين مناضلاً كبدت القوات الفرنسية خسائر كبيرة وبعد القضاء على حركته التحق زعيمها في عام1952م بالمقاومة المسلحة بعد اندلاعها وإثراءها بتجربته الطويلة والفريدة حيث كانت الفلاقة تتكون من شباب معظمهم من الريف المعوزين من الذين حكمت عليهم الأوضاع الاستعمارية بالبطالة وضنك العيش حاضراً ومستقبلاً لذلك سميت علمياً (بالحركة الديموغرافية) وكان هذا شأن الفلاقة في أطراف السواحل الكثيفة التي تمركزوا فيها وقاوموا السلطة الفرنسية بالسلاح طيلة أكثر من ثلاث سنوات (1945-1948م) إلا أن أسلوب هؤلاء الفلاقة العنيف وتصرفاتهم الفوضوية في المدن والقرى والريف وخاصة من الذين كانوا يعتبروا النضال المسلح عملاً سابقاً لأوانه ولهذه الأسباب لم تجد حركة الفلاقة مساعدة ناجعة من المكونات الأخرى مما مكن القوات الاستعمارية أن تقضي عليها بكل سهولة(6).

هوامش الفصل الثالث

(1) غيلان سمير طه: الحركات الوطنية التونسية، ط1966م مجلة آداب الفراهيدي، العدد13، مؤسسة التميمي/تونس، ص186.

(2) نفس المرجع: ص186.

(3) نفس المرجع: ص187.

(4) أميمة عبد العظيم سليمان: تطور الحركة الوطنية التونسية (1919-1956م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة بخت الرضا، 2016م، ص51.

(5) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج2، ط 1993م، دار المريخ للنشر، الرياض، ص106.

(6) نفس المرجع: ص107.

الفصل الرابع

المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية
(1946-1953م)

الفصل الرابع

المُقاومة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية (1946-1953م)

الحركة النقابية التونسية 1946م :

ظهرت الحركة النقابية منذ العام1944م تحت شعار(الحركة النقابية حركة مستمرة وفكرة لا تموت أبداً) وهو الشعار الذي اتخذه قائدها (فرحات حشاد) الذي كان عاملاً في إحدى شركات النقل بصفاقس والذي كان قد انضم إلى عضوية الاتحاد العام للعمال التونسيين الجديد بمختلف الطبقات العاملة في سائر أنحاء البلاد إلى جانب العمال الكادحين وكان من بين أعضائه بعض أساتذة الجامعات والمدرسون والمهندسون والأطباء وغيرهم ولم يلبث أن صار لهذا الاتحاد دور بارز في الحركة الوطنية بعد تأسيسه في عام1946م وبفضل عمل فرحات حشاد الذي أسس في عام1946م (الاتحاد العام التونسي لشغل UGT.T)(1) تكونت نقابة تونسية شأنها في ذلك أنها جامعة لعموم العمال التونسيين والتي كان قد أسسها (محمد علي) وهي تربط المطالب الاجتماعية بالقضية الوطنية ربطاً متيناً كما تعاونت مع الحزب الدستوري الجديد تعاوناً وثيقاً. المهم في الأمر أن الحركة النقابية قد أخذت شكلاً قومياً واضحاً بعد أن أيقن قائدها فرحات حشاد أن حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية مرتبط بشده بالنظام السياسي ومن ثم بدأت تناضل لأجل تحقيق هدفين أساسين الأول تحرير الوطن والثاني التحرير الاجتماعي (2)

وهكذا انطلقت الإضرابات التي نظمتها الحركة النقابية في جميع أنحاء البلاد مستفيدة من قدراتها الدفاعية وتجذرها في الواقع القومي مما ضمن لها حشد الجماهير العمالية التونسية على حساب جامعة عموم العمال التونسيون الموالية للشيوعية والتي أصبحت تدعو الاتحاد النقابي للعمال وفي أكتوبر من عام1946م ارتفع عدد المنخرطين في الاتحاد العام من عشرين ألف إلى مائة ألف عام1950م وهذا ما يؤكد أهمية دور الحركة النقابية في حياة المُقاومة والكفاح الوطني بدولة تونس (3)

حركة الاتحاد العام التونسي للشغل:

كان الهدف الأول الذي بني عليه الرائد البطل المناضل محمد علي الحركة النقابية أو ما يسمى بالإتحاد العام التونسي للشغل هو أن أهداف العمال العرب في تونس لا يمكن أن تتحقق في ظل الاستعمار الفرنسي- ولابد من تحقيق استقلال البلاد لتحقيق مطالب العمال ومهما قيل عن استقلالهم فان ذلك يبقي صورياً طالما أن ذلك كان في ظل الاستعمار الذي يتحكم في مفاصل البلاد لذلك تلخصت فكرتهم في عددٍ من النقاط الآتية:

- المبدأ الأول: هو أن تحرر البلاد من الاستعمار واستقلال العمال ونيلهم حقوقهم أمران مرتبطان أشد الارتباط باستقلال البلاد.
- المبدأ الثاني: أن الشعب كله لا يتجزأ جميع صفوفه مدعون للنضال ضد المستعمر لطرده من تونس.
- المبدأ الثالث: أن كفاح العمال الاجتماعي هو في نفس الوقت كفاح سياسي وطني فالعامل التونسي عندما يناضل من أجل حقوقه وأهدافه، إنما يناضل في الواقع من أجل تغير نظام الحكم السائد (4)

دور المؤتمر الوطني 1946م وموقف السلطات الفرنسية منه:

في 25 أغسطس عام1946م نظم حزب الدستور الجديد مؤتمراً وطنياً عاماً سمي (بمؤتمر ليلة القدر) تحت رئاسة (العروس الحداد) حضر هذا المؤتمر كل القوي السياسية في البلاد بما فيها الأحزاب والنقابات العمالية والزراعية ونقابات الموظفين ومندوبون عن جامع الزيتونة وفي هذه المؤتمر صار الجميع على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم السياسية كتله واحدة متراصة في مواجهة العدو الاستعماري وقد أتخذ المؤتمر قراراً بالإجماع بمطالبة السلطات الفرنسية بالاستقلال التام للبلاد، وكان رد السلطات الفرنسية أن أمرت بمداهمة مكان الاجتماع فتم القبض على 50 رجلاً من أبرز المؤتمرين يمثلون مختلف الاتجاهات السياسية ووجهت إليهم تهمة التآمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي وعلى إثر هذا الإجراء التعسفي أعلن فرحات حشاد رئيس الاتحاد العام للعمال الإضراب العام بالبلاد عدا المستشفيات مما أحدث شلل تام للحياة العامة بتونس (5)

فرحات حشاد قائد الحركة النقابية التونسية

حركة لجنة تحرير المغرب العربي 1947م:

كان العرب قد خطوا خطوة نحو التعاون بإنشاء جامعة الدول العربية وعند انتهاء الحرب العالمية الثانية توجه الحبيب بورقيبة إلى مصر مقر الجامعة العربية وهو يطمع في عرض القضية التونسية على جامعة الدول العربية والحصول على تأييدها، فوجد أبناء المغرب العربي قد أنشئوا في القاهرة (لجنة تحرير المغرب العربي) برئاسة الأمير المجاهد المغربي (عبد

الكريم الخطابي)(6) وفي أواخر عام 1947م فعهد إلى بورقيبة بأمانة هذه اللجنة ومن خلالها تعرف على زعماء الحركة القومية في الوطن العربي، وعُرف أسمه فيها والتي نص ميثاقها على أن المغرب العربي جزء لا يتجزأ من البلاد العربية وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبيعي لازم والاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لتونس. فكان الصدام مرة أخرى بين المقاومة الوطنية التونسية والسلطات الفرنسية في يونيو بحادثة القيروان والإضراب العام الذي أعلنه الاتحاد العام لنقابات العمال في صفاقس، ففي هذا الوقت برزت شخصية (صالح بن يوسف) الذي خلف الحبيب بورقيبة أثناء غيابه عن تونس وخاصة بعد نجاحه في تشكيل الجبهة التونسية التي تجمَعت فيها كل الأحزاب السياسية. فاشتدت بذلك الحركة الوطنية في تونس وقدمت مذكرة تطالب بتنفيذ بعض الإصلاحات إلا أن فرنسا رفضت الاعتراف بأي إصلاح لا يمثل فيه المستوطنون الأجانب خاصة النظام السياسي (7)

الأمير عبد الكريم الخطابي (رئيس لجنة تحرير المغرب العربي)

عودة لجهود الحزب الدستوري:

بعد ممارسات القمع التي سُلَطت على الحزب الدستوري الجديد سابقاً عام 1938م والسنوات التالية أضطر الحزب أن يسلك مسلكاً جديداً شديد الحذر، بعد أن أحكمت السلطات الفرنسية قبضتها على البلاد بعد الحرب العالمية الثانية، لذلك انتبه الحزب على أن لا يفرض نفسه في هذه المرحلة دفعه واحدة بل وجب عليه أن يتحالف مع قوى أخرى. لذلك بعد تأسيس

الجبهة الوطنية التونسية كثف الضغط على الفرنسيين بتدبير عدد من المظاهرات والإضرابات التي اقترنت فيها المطالبة بتحسين ظروف المعيشة والمطالبة بالاستقلال السياسي وفي عام1949م أي بعد عودة الحبيب بورقيبة من القاهرة اتخذت قيادة الحزب الدستوري خطوة مهمة وذلك بإعداد إستراتيجية لكفاح تونس من أجل الاستقلال وعلى الرغم من أن تحقيق الاستقلال الكامل كان هو الهدف الذي التفت حوله صفوف التونسيين فإن بورقيبة كان يدرك شدة معارضة الفرنسيين للاستقلال التونسي، فكان على استعداد لقبول حل وسط يفضي به تدريجياً إلى غايته على أساس سياسة (خذ وطالب) أي مرحلة بعد مرحلة وهو ما أصبح يعرف بالطريقة البورقيبة وفي عام1950م كانت خلاياه تمتد كالشبكة على كامل البلاد حتى تلك المناطق التي كان لم يصلها تأثيره مثل الشمال والغرب وكانت اجتماعاته تضم ألافاً من الأشخاص ، فأضطر الفرنسيون في البداية على مبدأ التفاوض حول مسألة الاستقلال الذاتي الجزئي(8) ثم خطت فرنسا خطوة جديدة في طريق التفاهم مع التونسيين بعد أن وافقت على تشكيل وزارة وطنية جديدة في أغسطس في عام1950م يتساوى فيها عدد الوزراء التونسيون مع الوزراء الفرنسيون، واعتبر الفرنسيون ذلك آخر تنازل من جانبهم بحيث يمكنهم الإبقاء على سيطرتهم على البلاد. فضمت الوزارة صالح بن يوسف من الحزب الدستوري الجديد والسيد (محمد بدره) رئيس اتحاد الغرف التجارية التونسية وبدأت الوزارة مفاوضاتها مع فرنسا لحل الخلافات المتعلقة بهم إلا أن المستوطنون الأجانب هاجوا واحتجوا بل قدم أعضاءهم في المجلس الكبير استقلالهم ثم هدد زعيمهم بإعلان العصيان المدني فرحب الحبيب بورقيبة بالتعاون مع فرنسا وقدم عدة مطالب تتمثل في الآتي:

أ. إعادة سلطات الباي.

ب. تشكيل مجلس وزراء كل أعضائه من التونسيين.

ج. إلغاء منصب الأمين العام.

د. إلغاء مناصب المستشارين الإداريين للمقاطعات وعددهم19.

ه. حل الشرطة.

و. إحداث مجالس بلدية منتخبه.

ز. تشكيل مجلس نواب منتخب يضع دستوراً ويقر معاهدة مع فرنسا(9)

ثم تبنت الوزارة الوطنية هذه المطالب ورفعت إلى الحكومة الفرنسية التي انقسمت على نفسها ما بين مؤيد ومعارض ومتحفظ لهذه المطالب بعضها أو كلها وأخيراً رفضت الحكومة هذه المطالب وفي نفس عام1950م أثيرت القضية التونسية في هيئة الأمم المتحدة من الدول العربية بمناصرة الدول الأسيوية والإسلامية، ووقف مندوبو هذه الدول ينددون بفرنسا ويؤيدون تونس في الحرية والاستقلال ، فحرص الحزب الدستوري الجديد الذي قاد حركة المقاومة على اعتماد أسلوب المراحل منهجاً للعمل السياسي والمطالبة بالحكم الذاتي عن طريق الاستقلال التام، حيث سعي لفتح قنوات مع الفرنسيين وعقد الحزب الدستوري عام1952م مؤتمر أصدر فيه لائحة مطالب أهمها: إلغاء نظام الحماية وتحويل تونس إلى دولة مستقلة(10)

وافقت الأمم المتحدة عام1952م على إدراج القضية التونسية على جدول أعمالها وأصدرت مباشرة لائحة أخرى دعت فيها الحكومة الفرنسية إلى تطوير المؤسسات التونسية وفتح المفاوضات مع التونسيين لتمكينهم

من الحصول على حقوقهم وتسيير شؤونهم الخاصة طبقاً لقوانين الأمم المتحدة وفي عام1952م أوقفت فرنسا مفاوضاتها مع الوطنيين التونسيين وحظرت انعقاد مؤتمر الحزب الدستوري. فدخلت البلاد خلال سنتين مرحلة جديدة من المواجهة مع فرنسا التي حاولت القضاء على الحركة الوطنية وذلك بإصدارها أحكام ضد الوطنيين وقمع المظاهرات ثم عينت مقيم عام جديد لها في تونس أكثر تشدداً نفذ عدداً من الاعتقالات والإبعاد على قادة التظاهرات والإضرابات ثم ألقت القبض على الحبيب بورقيبة مرة أخرى ومحمد شنيق إلى جانب زعماء كثر آخرين وقتل البعض إلا أن صالح بن يوسف الرجل الثاني في الحزب الدستوري نجح في الفرار إلى القاهرة(11)

اغتيال الزعيم فرحات حشاد 1952م:

تم اغتياله في 5/ديسمبر عام 1952م على يد منظمة اليد الحمراء الإرهابية التي كونها المستعمرون الفرنسيون مع الأزهر في تونس وهي هيئه من سفاكي الدماء لنيل من كل مواطن يتقدم الصفوف حتى يتراجع كل خادم عن أداء واجبه وفي مصرع فرحات حشاد أصدرت صحيفة الجماعة الفرنسية لتبرير جريمتها عدة منشورات تتهمه فيها بالتواطؤ مع الأمريكيين على أساس صداقات بينه وبين بعض زعماء العمال الأمريكيين فحرمت وطنه من خدماته وكان يمكن أن يكون زعيماً لا يقل مقدرة عن الحبيب بورقيبة وقد كان لاغتيال فرحات أثر عميق في نفوس أنصاره ورفاقه من المناضلين الذين بادروا إلى حمل السلاح وصعدوا الجبال لمواجهة المستعمرين وقد أثارت فاجعة فرحات حشاد ثائرة الشعب التونسي كما اهتز لها كيان الاتحاد العام الذي يضم ما بين (ثمانمائة ألف إلى مائة ألف عامل)

ظلوا هم محور الكفاح ولا سيما أن جريمة اغتيال الزعيم حشاد بعد أن امتلأت أيامه بالاضطهاد الفرنسي الذي بلغ حداً من التهور وتجاهل كرامة البلاد(12)

المهادنة الأولى:

لمواجهه غضب الشعب التونسي لجأت فرنسا إلى أسلوب المهادنة فقامت بتغيير المقيم العام الفرنسي الجنرال (ماست) الذي عُرف بسياسة البطش والقوه واستبدلته بمقيم جديد هو (موسن) وطلبت منه إتباع سياسة اللين والمهادنة فبدأ المقيم العام الجديد أعماله بإلغاء الرقابة على الصحف، كما ألغي حق السكرتير العام الفرنسي في الإشراف على أعمال الوزراء التونسيين بموجب المرسوم الذي أصدره الجنرال (ديجول) من قبل وأيضاً عمل على تحسين العلاقات التونسية- الفرنسية وأفرج عن الزعماء ووافق على تشكيل حكومة جديدة ومجلس تشريعي من(45) نائب تونسي، إلا أن الحركة الوطنية رفضت هذا الإجراءات وطالبت بالمزيد فقامت حركة مقاومة مسلحة بلغت 3,000ألف رجل ضد القوات الفرنسية وأيضاً نشطت في الخارج الحركة الوطنية التونسية مطالبة بإلغاء الحماية والاستقلال أسوة بالدول العربية(13)

الحركة الفلاحية 1953م:

أحس الفلاحون أيضاً بضرورة إيجاد تنظيم يجمعهم ويدافع عن حقوقهم، خاصة بعد تكوين الاتحاد العام التونسي للشغل واتحاد التجار والصناعة لذلك كون الفلاحون تنظيما أطلقوا عليه اسم (الاتحاد العام للفلاحة التونسية) كان رئيسه (الحبيب المولهي) وأمينه العام (عبدالله) ونظراً للعدد الهائل من الأعضاء المشاركين في الاتحاد الذين بلغ عددهم في

مطلع عام1953م أكثر من (خمسين ومائتي ألف) مشترك فإن الاتحاد العام التونسي للفلاحة يعتبر من أقوى التنظيمات الوطنية من حيث عدد المشاركين بالرغم من أنه أحدث التنظيمات الوطنية تكويناً والغاية منه كانت الدفاع عن حقوق المزارعين التونسيين وذلك لأن الاستعمار الفرنسي كان يهدد دائماً باستمرار انتزاع أراضيهم ويضيق الخناق عليهم مادياً ويحاربهم نفسياً ليجبرهم على مغادرة أراضيهم وبقدر ما كانت مواقع الأراضي الخصبة كلما ما اشتد المستعمر في ممارسة ضغوطه على الفلاحين التونسيين ولهذا السبب كان الشعور عاماً بضرورة الانضمام إلى صفوف المناضلين في هذه النقابة ويبدو من هذه الروح الصارمة التي أراد الاتحاد أن يجعلها تتغلغل في نفوس أعضائه أنه كان مدركاً إدراكاً كاملاً لخطورة المعركة التي كان مقدماً عليها وهي معركة التحرر الوطني، حيث كان الاعتقاد السائد لدي كل عضو واعٍ في الاتحاد أنه لا حقوق للفلاحين ولا كرامه لهم ولا اطمئنان لهم ما دام الاستعمار يحكم البلاد ولكن الإعداد للمعركة الوطنية لم يمنع الاتحاد من أن يشرع في العمل العظيم الذي من أجله وهو وضع البرامج لتحسين حالة الفلاح الاقتصادية والاجتماعية، فكان أول عمل مهم قام به في هذا المجال هو محاولة تحسين الإنتاج وذلك بإنشاء التعاونيات الفلاحية التي تضم عدد من الملاك المزارعين الأعضاء في الاتحاد وكان دور الفلاحين في معركة التحرير الوطني مهماً فقد كان المجاهدون التونسيين في الجبال يتلقون منهم كل عون وسند وكانوا يجدوا منم الغذاء الضروري اللازم للعيش وكانت أيضاً أفواج المجاهدين تنزل من الجبال وتلجأ إلى البيوت لتجد من كرم الفلاحين وترحابهم ما يساعدهم على استمرار نضالهم المسلح ضد المستعمرين الفرنسيين لذلك تعرض الفلاحون بسبب مساعدتهم هذه للمجاهدين لأشد أنواع التعذيب(14)

الاصطدام بين فرنسا والحركة الوطنية التونسية (1952-1954م)

نجد أن السياسية الفرنسية التي أعلن عنها المقيم العام الجديد بحلوله تونس على متن باخرة حربية في عملية استعراض كبير للجيش الفرنسي وقدرته على التصدي بالقوى لكل مقاومة ،فكان نتيجة ذلك أن أصبحت البلاد في من حالة الغليان بررته زيادة عمليات القمع وضرب المراقبة المشددة على المراكز السكنية- تليها حملات بوليسية واعتقالات عشوائية واهانات للمواطنين أما المقاومة التونسية التي هيأ لها الحزب الدستوري الجديد منذ أمد بعيد فقد اتخذت أشكالاً عديدة ، فكان قد بادر رجالها إلى شن حمله إعلاميه ودعائية واسعة النطاق لدي المنظمات العالمية مثل (الجمعية العامة للأمم المتحدة والبلدان العربية الأوربية)(15) أما في الداخل فإن كل نشاط سياسي أصبح بطبيعة الحال سرياً ، ففي كل المدن كانت الإضرابات والمظاهرات تدور في جو مشحوناً بالتوتر وكثير ما كانت تفضي إلى تدخل قوات الأمن الفرنسي وإلى إراقة الدماء ، ثم اشتدت حركة الجهاد التونسي في أوسط عام 1953م وتطورت إلى أن أصبحت حرباً تحررية صارت لها كتائب تضم الآلاف من المجاهدين المنظمين المسلحين وقد أخذت بحركاتها واندفاعها تثير الرعب في نفوس السلطات الفرنسية والمستوطنين والموالين التونسيين مع فرنسا ، ثم أخذت تفتك بهم فتكاً ذريعاً ولم تمضي بضعة أيَام حتى استطاع المجاهدون السيطرة التامة على المناطق الجبلية الواقعة غرب تونس والممتدة من الشمال إلى الجنوب. فجن جنون السلطات الفرنسية التي طاردت واعتقلت وقتلت وحاكمت الكثير من التونسيين بمحاكمات صورية كما قتلت البعض منهم بدون محاكمة ونسفت كثيراً من المنازل في مدن عديدة وأيضاً اعتقلت المئات من الشباب التونسيين ثم عمدت إلى أسلوب في غاية الفظاعة وذلك بعد إنشاءها منظمة سرية متخصصة

للفتك بمن يناصرون المقاومة الوطنية من كبار التونسيين لذلك ضاعفت فرنسا عدد جنودها في تونس البالغ عددهم (خمسون ألفاً) بالإضافة ثمان وأربعين وحدة مقاتله متنقلة من المستوطنين الفرنسيين لتتولى حماية من يعيش منهم في المناطق المنعزلة وكونت أيضاً وحدات مقاتله أخرى منهم لتتولى حماية الذين يعيشون منهم في المدن وسلحت كل قادر على حمل السلاح من المستوطنين في المدن والريف تسليحاً قوياً للدفاع عن نفسه وذويه إلا أنه بالرغم من ذلك استمرت المظاهرات والاضطرابات الوطنية في المدن على الرغم من تشديد فرنسا وممارستها للقمع، ففي عام1954م أمتد الاستياء العام من الحكم الاستعماري إلى المناطق الريفية ولأول مرة في تاريخ تونس الحديث انتظم الفلاحون في جماعات مسلحة ونظم الجميع أنفسهم من طبقات المجتمع المختلفة زراع وصناع وحرفيين ومعلمين حتى نجحوا في تكوين جبهة مقاومة جديدة مُسلحة سميت بجبهة التحرير(16)

هوامش الفصل الرابع

(1) أميمه عبد العظيم سليمان: تطور الحركة الوطنية التونسية (1919-1956م) رسالة ماجستير غير منشورة /كلية الآداب/ قسم التاريخ/ جامعة بخت الرضا، 2016م ، ص56.

(2) نفس المرجع: 58 .

(3) محمد الهادي الشريف: تاريخ تونس من عصور قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، ط 1986م، دار سر أس للنشر، تونس، ص135.

(4) نفس المرجع: ص135.

(5) حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، د .ت، ج1، ط2004م ، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية ، ص197.

(6) توفيق سُلطان: وآخرون: دراسات في الوطن العربي والحركات الثورية والسياسية، ط3، 1975م، مؤسسة دار الكتاب،جمهورية العراق، ص155.

(7) نفس المرجع: ص 156 .

(8) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر ، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ج1، ط3 ، دار المريخ للنشر، تونس ، ص111.

(9) نفس المرجع: ص112 .

(10) مفيد الزيدي: موسوعة تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط د .ت، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ص241.

(11) جون جنتر: داخل إفريقيا، ترجمة فاروق حافظ،ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، لقاهرة ، ص180.

(12) أميمه عبد العظيم سليمان: مرجع سابق ، ص60 .

(13) الطاهر عبدالله : الحركة الوطنية التونسي، ط3 د.ت، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ص206.

(14) محمد الهادي شريف: مرجع سابق، ص135.

(15) نفس المرجع: ص136 .

(16) جعفر عباس حميدي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط د.ت، دار الفكر، عمان، ص200.

الفصل الخامس

استقلال تونس

الفصل الخامس

استقلال تونس

جبهة التحرير التونسية 1954م:

تكونت (فرق جيش تحرير تونس) في أول نوفمبر عام1954م وتولى بعض المجاهدين التونسيين قيادتها وانتشرت في الجنوب حول مدينة سوسه وفي الغرب حتى حدود الجزائر فبلغ عدد التونسيين الذين سجلوا أسماءهم في هذه الفرق (خمسة عشر ألف محارب) وهم الذين أنزلوا الرعب في مواكب المستوطنين حتى أن بعضهم ضغط على الحكومة الفرنسية لتقبل أي حل من شأنه إنهاء الأزمة التونسية وكانت مهمة فرق الجبهة تطهير البلاد من الاستعمار وأذياله وتوحيد النضال مع جيش التحرير الجزائري وحث الشعب على القيام بواجبه في هذا النضال الفاصل ضد الاستعمار وتحذر كل من تحدثه نفسه بالوقوف ضد هذه الحركة النضالية المسلحة وتندد بكل من يتبع أولئك الذين تنكروا للمبادئ الوطنية والقيم الكفاحية(1)

خضعت تونس لتأثير جيش التحرير التونسي ثم لنشوب الثورة الجزائرية الكبرى عام 1954م ومع تأزم الموقف أمام فرنسا وافقت هذه الدولة على التراجع في تونس فمهدت فرنسا للتسوية القادمة بنقل الحبيب بورقيبة من منفاه إلى الجزر القريبة من الساحل التونسي إلى فرنسا نفسها(45) في الوقت الذي بدأت فيه نواة جيش التحرير التونسي تهاجم المستوطنين الفرنسيين وتخرب وسائل الاتصال (بقطع الأسلاك وإخراج القطارات عن خطوطها) ومقاتلة الوحدات الفرنسية الصغيرة ولم تكن تلك الأنشطة مقصورة على المناطق النائية بل كانت على العكس من ذلك تتركز في شبه

جزيرة رأس بون وفي الجزء الشمالي من البلاد(2) أما السلطات الفرنسية فقد لجأت إلى استخدم القوه المفرطة بعد أن قامت بعمليات تفتيش واسعة بالبحث عن الأسلحة وعن العناصر الوطنية المتهمة بضلوعها في الوقوف مع المقاومة المسلحة بل بدأت عملياتهم تأخذ شكل إرهاب منظم فقد هدمت الدور ونهبت الممتلكات وهتكت الأعراض ، إلا أن ذلك لم يمنع من استمرار أعمال المقاومة التي كانت تلغي بالقنابل في كل مكان ومهاجمة الفرنسيين والنزول معهم في معارك شبه عسكرية خاصة في المناطق الجنوبية وفي وسط هذا الموقف المتزايد من الصعوبة جاءت صدمة هزيمة الفرنسيين في معركة (ديان 7/مايو 1954م) مما أزم وضع الحكومة الفرنسية التي تمخضت عن تشكيل حكومة (منديس فرانس) الاشتراكية التي اضطرت إلى إعادة فتح المفاوضات من جديد وأصدرت وعداً بالاستقلال عرف بتصريح قرطاجة، بعد أن قامت بإطلاق سراح الحبيب بورقيبة الذي رحب بهذا التصريح وأعلن استعداده للمفاوضات فكان من الصعب على فرنسا أن تتجاهل الزعماء السياسيين التونسيين وإن كان الأمر صعباً أخرجت الحبيب بورقيبة من المعتقل لكي يجلس على نفس المائدة ويفاوض الفرنسيين في مستقبل بلاده ، فاستقر الرأي على تشكيل وفد رسمي لتونس الأمر الذي تتطلب تشكيل وزارة تونسية جديدة برئاسة أحد المعتقلين للقيام بهذه المهمة فوقع الاختيار على(الطاهر بن عمار) الذي كان من كبار الملاك المزارعين على أن يشترك معه ثلاثة من الدستورين بعضهم وزراء دولة علاوة على عدد من الوزراء المعتقلين لكي يفاوضوا فرنسا(3)

اشترطت فرنسا أمر تصفية جيش التحرير التونسي وتسليم رجاله بأسلحتهم وذخائرهم كشرط لبدء المفاوضات، ولكن رغم موافقة واستعداد الحبيب بورقيبة للتفاهم مع الفرنسيين على هذا الأساس، كان من الصعب

عليه أن يفرض نفسه على عناصر وحدات جيش التحرير المنتشرة في البلاد خاصة وأن صالح بن يوسف كان يتولى الإشراف الفعلي على هذه الوحدات وقطعاً لا يوافق على نزع سلاحه قبل المفاوضات وأمام هذا التعارض بين وجهني نظر الزعمين اضطرت فرنسا من الناحية العملية إلى عدم الإصرار على هذا الشرط ، فأصدرت بلاغاً مشتركاً مع الحكومة التونسية في منتصف نوفمبر عام1954م ضمن سلامة التونسيين المجاهدين بتقديم أسلحتهم وذخائرهم للسلطات الفرنسية(4)

الهدنة الثانية:

أدركت الحكومة الفرنسية أنها عاجزة على إخماد روح المقاومة لدي الشعب التونسي لذلك عادت من جديد إلى أسلوب المراوغة والمهادنة فأظهرت استعدادها للتفاوض مع زعماء الحركة الوطنية وقامت بتعين مقيم عام جديد لفرنسا بدلاً من المقيم القديم وذلك في سبتمبر عام1954م لأجل التخفيف من حدة التوتر، فبدأ المقيم العام الجديد خطواته السياسية بإعلانه عن تصريحات تتضمن الآتي:

أ. استمالة الباي وحاشيته

ب. تشكيل وزارة جديدة برئاسة محمد صالح

ج. إطلاق سراح بعض السياسيين

د. إلغاء المعسكرات التي تخص بالمعتقلين، مع التلويح بإدخال إصلاحات جديدة إلا أنه واصل نفس تنفيذ سياسة أسلافه، فشدد الخناق على الوطنيين وأذن بتنفيذ أحكام الإعدام التي صدرت بحق بعض المناضلين(5)

في عام1954م وصل منداس فرانس لتشكيل حكومة جديدة ومراجعة السياسة الفرنسية في المستعمرات في شمال أفريقيا والهند الصينية وأبلغ الباي بتحسين العلاقات مع تونس. لم تجد فرنسا في ضغط هذه الظروف بداً من الرجوع لبعض رشدها فتقدم رئيس وزرائها(منداس فرانس) إلى تونس لأجراء مباحثات مع بعض الزعماء وصدر تصريح رئيس الوزراء في (31/يوليو عام1954م) وهو يقضي بمنح الحكم الجزئي لتونس أي ظهور بوادر موافقة فرنسا على منح تونس حكماً ذاتياً ولم يكن الحبيب بورقيبة أبداً من أنصار الحلول العنيفة فهو لا يلجئ للقوه إلا في أقصي حد أو عندما يكون قد استنفذ جميع وسائل الإقناع بعد قناعته أن الطريق المؤدي إلى الهدف النهائي أي الاستقلال طريق مسدود وحرصاً منه على إنقاذ الصداقة الفرنسية التونسية المفيدة لكلاً من البلدين فقد كان دوماً يرغب في حل المشاكل عن طريق الحوار وهو يود أن يفصل الحقد والضغينة بين الشعبين التونسي والفرنسي إلى الأبد هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان يرغب دوماً في الحصول على مساندة الرأي العام التونسي أو الفرنسي أو العالمي وذلك لأنه كان يرى أن رفض الحوار يُحمل فرنسا تبعة كل الأخطاء ويبرر للكفاح المسلح الذي أقره بورقيبة بالعزم على خوضه إذا ما رفضت فرنسا التفاهم مرة أخرى(6)

اتفاقية الاستقلال1955م:

دارت مفاوضات بين الطرفين حيث كان بورقيبة ممثلاً لتونس فيها فصدرت هذه الاتفاقية في (3/يونيو عام1955م) فتم التوقيع على اتفاق منح تونس استقلالاً داخلياً مع الاحتفاظ بأمور السياسة الخارجية والأمن والدفاع لمصلحة فرنسا. لذلك يمكن أن ننظر للاتفاقية باتجاهين: يري البعض

أنها خطوة إلى الأمام تمهد لما بعدها وتزعم بورقيبة هذا الاتجاه وآخرون يرون أنها نكبة لحركة المُقاومة الوطنية وخيبة أمل لميدان الكفاح الوطني وتزعم هذا الاتجاه صالح بن يوسف إلا أن بورقيبة اعتبر هذا الاستقلال مرحلة فعلية أولى معتمداً في ذلك على حكمته السياسية المعروفة بمبدأ (خذ وطالب) (7)

لذلك جوبهت هذه الاتفاقية بمقاومة عنيفة من قبل الشعب العربي في تونس ولم يكن مفاجأة موقف بورقيبة السالب من صالح بن يوسف ورفاقه الذين عارضوا هذه الاتفاقية وشنوا حملة واسعة ضدها وضد اتفاقيات الكفاح من أجل الاستقلال معلنين تنشيط المقاومة المسلحة والعمليات الفدائية التي وافقه عليها الحزب الدستوري، إلا بورقيبة قام بفصل صالح ابن يوسف من الحزب مما أدى إلى انشقاقات ومواجهات بين أتباع بورقيبة وأتباع بن يوسف وكان ذلك إيذاناً بانتهاج الحزب سياسة معتدلة ولكن بالرغم من وجود الثوريين وعلى رأسهم صالح بن يوسف الذين رفضوا اتفاقية الاستقلال الجزئي أو الذاتي، انتهز الزعيم الحبيب بورقيبة فرصة هذا المعارضة كما انتهز فرصة الحرب الدائرة بالجزائر مع الفرنسيين فشكل بورقيبة الوزارة التونسية الجديدة وسعى إلى تعديل الاتفاقية السابقة في 20/مارس عام1956م فتم توقيع برتوكول الاستقلال التام وتحسنت بالتالي العلاقات الفرنسية التونسية وحصلت بذلك تونس على استقلالها عام 1956م وألغيت بذلك الحماية الفرنسية مع مراعاة المصالح الفرنسية(8)

تميزت الحركة الوطنية التونسية عن قريناتها في مراكش (المغرب) والجزائر بالتجدد المستمر كلما سنحت الفرصة وكلما قدمت السلطات الفرنسية

بعض التنازلات، كما كان الارتباط وثيقاً بين قيادات الحركة الوطنية التونسية وعامة الجماهير الساخطة على الوجود الاستعماري الفرنسي، لذلك اتخذ تاريخ الحركة الوطنية التونسية الطابع المعتدل الملتزم بالشرعية مما مكنه من أن يصل إلى مبتغاة بأقل تكلفة (بالمقارنة مع الجزائر القريبة) كما ساهمت قيادات تونس المثقفون الذين ينتمي معظمهم إلى المجتمعات البلدية أو إلى الطبقات المتوسطة وهو ما يتوافق مع (البورجوازية)الأوربية التي ينتمي أصحابها جمعيهم أو جلهم إلى ذلك القسم المنفتح أو المتقدم من البلاد التونسية(9)

هوامش الفصل الخامس

(1) توفيق سُلطان: وآخرون: دراسات في الوطن العربي والحركات الثورية والسياسية، ط3، 1975م، مؤسسة دار الكتاب، العراق، ص155.

(2) إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج1، ط3، دار المريخ للنشر، ص93.

(3) جون جنتر: داخل إفريقيا، ترجمة فاروق حافظ، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ص180.

(4) أميمة عبد العظيم سليمان: رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم التاريخ والحضارة ،جامعة بخت الرضا، ص65.

(5) الطاهر عبدالله: الحركة الوطنية التونسية ط3، د.ت، دار المعارف، مصر، ص206.

(6) محمد الهادي شريف: تاريخ تونس من عصور قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، ط 1986م، دار سر أس للنشر، تونس.، ص135.

(7) جعفر عباس حميدي: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط د.ت، دار الفكر، عمان، ص200.

(8) ناهد إبراهيم دسوقي: دراسات في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2008م، دار المعرفة الجامعية للنشر، ص255.

(9) جلال يحي: العالم العربي الحديث والمعاصر، ج3، ط2001م، مؤسسة شباب الجامعة للنشر/الإسكندرية، ص620.

الخاتمة

خضعت تونس للخلافة العثمانية منذ العام 1574م تحت سيطرة ما يسمي بالبايات ونتيجة لتدهور الإدارة في عهدهم فقد سقطت تونس تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي حيث كانت تقع تحت دائرة أطماعهم الاستعمارية.

في مطلع القرن العشرين تم تأسيس النواة الأولى لتجمعات المُقاومة التونسية المناهضة للاستعمار الفرنسي غير أن ذلك النضال لم يكن منظم بعمل وقيادات موحدة وإنما كان حركة شعبية عفوية ضد الاستعمار ولا شك أن الحزب الحر التونسي الذي تأسس عام 1920م أدى دوراً تاريخياً كبيراً في مُقاومة الاحتلال الفرنسي ويعود سبب نجاح الحزب إلى التفاف الشعب التونسي حوله بفضل شخصية زعيمه الحبيب بورقيبة .

ويمكن تسمية المرحلة من (1936 – 1938م) بمرحلة تطور للمُقاومة الوطنية إلا أن التفوق العسكري والتنظيمي الواضح للقوات الفرنسية في تونس كان العامل الأبرز دائماً في القضاء على كل الإضرابات والتظاهرات التي كانت تنظمها المقاومة الوطنية التونسية بل صحب ذلك عملية تنكيل وبطش عنيف بالشعب والقادة التونسيون مما دعي لتكوين فرقة مسلحة جديدة سميت (بجبهة التحرير) مما ساهم ذلك في خلق زعزعة وعدم استقرار للمستوطنين والإدارة الاستعمارية حتى تم التوصل لتوقيع اتفاقية ألغي من خلالها نظام الحماية الفرنسية وإعلان استقلال البلاد عام 1956م.

قائمة المصادر والمراجع

1. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج1،ط1993م، دار المريخ للنشر الرياض، ص93.

2. مُفيد الزيدي: موسوعة تاريخ العرب الحديث والمعاصر، د.ت، دار أسامة للنشر والتوزيع/الأردن، ص227.

3. شوقي عطا الله الجمل: المغرب في العصر الحديث: ط1977م، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص307.

4. شوقي الجمل: كشف إفريقيا واستعمارها، ط1971م، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ص531.

5. حلمي محروس إسماعيل: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ج1، ط2004م، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، القاهرة ، ص247.

6. شوقي أبو خليل الإسلام وحركات التحرر العربية، ط1985م ، دار الفكر للطباعة والتوزيع/دمشق ، ص95.

7. محمد كامل: الدول العربية الكبرى، د.ط ، دار المعارف/مصر ، ص515.

8. رأفت الشيخ: تاريخ العرب المعاصر، ط1966م ، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة ، ص142.

9. أميمه عبد العظيم سليمان: تطور الحركة الوطنية التونسية (1919-1956م) رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب/قسم التاريخ والحضارة/ جامعة بخت الرضا ، ص36.

10. عـلال الفاسـي: الحـركات الاسـتقلالية في المغـرب العربـي، ط1984م ، لجنـة الثقافـة للنشـر/القاهرة ، ص48.

11. الطاهـر عبـدالله: الحركـة الوطنيـة التونسـية، ط3، د.ت، دار المعارف،مصـر، ص33.

12. عبـد الوهـاب أحمـد عبـدالله: تاريـخ العـرب الحديـث، ط4، 2001م، دار الفكـر للنشـر،دبي، دبـي ، ص200.

13. جعفـر عبـاس حميـدي: تاريـخ إفريقيـا الحديـث والمعاصـر، د.ت، دار الفكـر للطباعـة والنشـر،عمان ، ص300.

14. غيـلان سـمير طـه: الحـركات الوطنيـة التونسـية، ط1966م مجلـة آداب الفراهيـدي، العـدد13، مؤسسـة التميمي/تونـس، ص186.

15. محمـد الهـادي الشـريف: تاريـخ تونـس مـن عصـور قبـل التاريـخ إلـى الاسـتقلال، تعريـب: محمـد الشـاوش، ط 1986م، دار سـر أس للنشـر، تونـس، ص135.

16. توفيـق سُـلطان وآخـرون: دراسـات في الوطـن العربـي والحـركات الثوريـة والسياسـية، ط3، 1975م، مؤسسـة دار الكتاب/جمهوريـة العـراق ، ص155.

17. جـون جنتـر: داخـل إفريقيـا، ترجمـة فـاروق حافـظ،ج1، مكتبـة الأنجلـو المصرية/القاهـرة ، ص180.

18. ناهـد إبراهيـم دسـوقي: دراسـات في تاريـخ إفريقيـا الحديـث والمعاصـر، ط2008م، دار المعرفـة الجامعيـة للنشـر، ص255.

19. جلال يحي: العالم العربي الحديث والمعاصر، ج3، ط2001م، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية، ص620.
20. جلال يحي: العالم العربي الحديث، ط 1996م، دار المعارف، مصر .

دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation

الناشر
دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السـودان
جوال: 00249122094856 - 121566207
البريد إلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

شهد البحر المتوسط والدول المطلة عليه ذلك الصراع الاستعماري الأوربي الذي لم يشهده تاريخ المنطقة العربية والإفريقية من قبل ولم يحدث أن استمرت موجة استعمارية مثل ما حدث في القارة الإفريقية ولم يسبق أن استنزفت موارد قارة بشرية وطبيعية مثلما كان في القارة الإفريقية، لذلك استغلت فرنسا الظروف الداخلية لتونس التي تدهورت في أواخر عهد البايات العثمانيين الذين عجزوا عن سداد المديونية المالية للدول صاحبة القروض وإن كان هدف فرنسا هو التحكم على المناطق الإستراتيجية ولا شك أن موقع تونس الممتاز على البحر المتوسط كان هدفاً من قبل فرنسا التي أخضعتها لسيطرتها عام 1881م. وفي هذه الصفحات تناول موضوع حديثنا المقاومة الوطنية لتونس؛ وذلك بغرض الوقوف على تضحيات الشعب التونسي الذي رفض الحماية الفرنسية بكل أنواعها.

APD
دار آريثيريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribuation